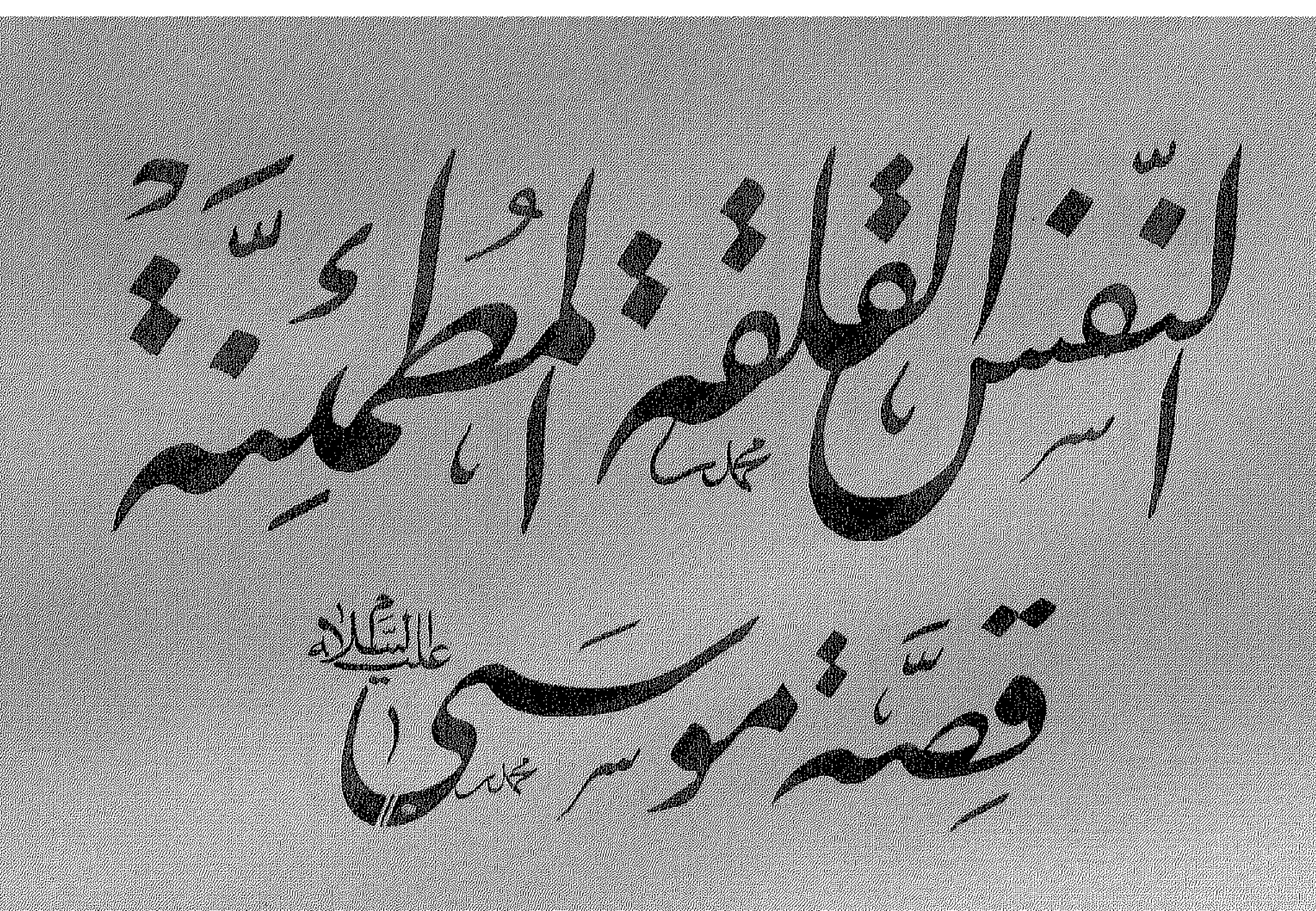


تأليف

د. عبد القادر حسين





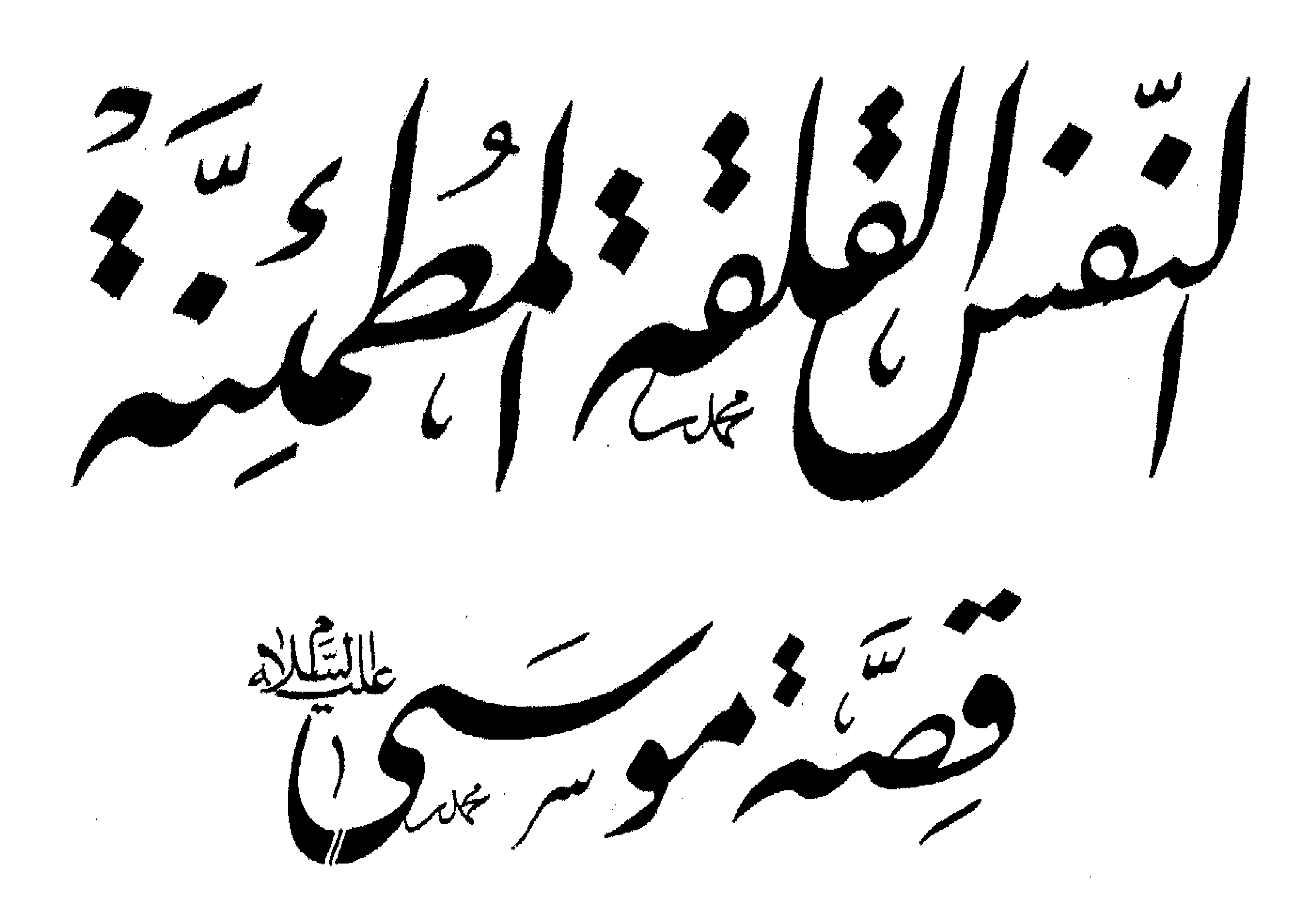
مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.

النفس القلقة المطمئنة

قصة موسى عليه السلام



﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي
فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الاعراف: ١٤٤]



تأليف

د. عبد القادر حسين



مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.

الطبعــة الأولــــى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.

١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة
ت ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٦
فاكس ٣٤٥٤٦٤٤

□ المقـــدمـــة □

قصة موسى عليه السلام منذ مولده إلى أن توفاه اللّٰه مليئة بالأحداث الجسام، فأمه تخشى عليه منذ طفولته من بطش فرعون فتلقيه في اليم، ورغم أن الفرقة كانت قاسية على قلب الأم إلا أنها كانت واثقة أن اللّٰه سيتولى أمره، ويحفظه من كيد الأعداء، ويرده إليها سالمًا.

وعندما يشب عن الطوق يقتل واحدًا من شيعة فرعون؛ لأن رجلًا من بني إسرائيل استنصره عليه فأراد أن يزجره فبطش به وقتله دون قصد، وهرب من مصر إلى الشام وحيدًا يجوب الصحراء يبطش به الجوع ويمزقه العطش.

التقى في مدين بالنبي شعيب (*) وتزوج صافوريا إحدى ابنتيه، ومكث في رحابه عشر سنين يقوم بخدمته ويرعى مصالحه، حتى اشتاق لرؤية أمه وأخيه هارون بمصر، فغادر مدين متجهًا إلى مصر، وفي الطريق ناداه ربه عند الوادي المقدس وأيّده بالعصا واليد البيضاء والرسالة إلى فرعون وقومه، وظن فرعون عندما شاهد العصا أن موسى ساحر، فجمع سحرته ليكيد له ويتغلب عليه ويلقنه درسًا حتى يكون عبرة لمن يعتبر.

(*) ليس هناك دليل صحيح صريح عن نبينا صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم على أن الرجل كان شعيبًا عليه السلام، وسياق القرآن لا يدل على ذلك، ولا يلزم ذلك من ذكر مدين أيضًا، والظاهر أن غالب تفاصيل القصة مأخوذ من أخبار بني إسرائيل والتي لا يستفاد منها الجزم بشيءٍ أو نفيه، إنما نجزم بثبوت ما جاء في كتاب اللّٰه تعالى وصح من أخبار رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم، وأما أخبار بني إسرائيل فتحكى استئناسًا ما دامت لم تخالف ما جاء في القرآن والسنة الصحيحة، ولا نصدق بها ولا نكذبها، بل نَكِلُ علمها إلى اللّٰه، وهي في الغالب لا تؤثر في إضافة شيء ضروري. واللّٰه أعلم.
«مصحح دار الحرمين»

تغلب موسى على سحرة فرعون، ولكن فرعون أبى الهزيمة، فتعقب موسى مطاردًا إياه، غير أن من يؤيده اللَّه ينصره لا محالة، فاجتاز موسى ومن آمن معه البحر سالمين مطمئنين، وأغرق اللَّه فرعون في البحر، وجعل جثته طافية تشاهدها العيون حتى لا ينكر غرقه أحد، فإلههم قد مات، وأصبح طعامًا للأسماك.

أخذ اللَّه الميثاق على بني إسرائيل ألا يعبدوا إلا اللَّه ولا يشركوا به شيئًا، وانطلق موسى إلى جبل الطور ليعبد ربه، وترك قومه في معية أخيه هارون حتى يرسخ الإيمان في قلوبهم، ويخلصوا العبادة لربهم، ولكن السامري صاحب موسى صاغ من حليهم عجلًا صيروه إلهًا يعبدونه من دون اللَّه.

وعندما طلب موسى من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة تعللوا بأن فيها قومًا جبارين لا قِبَل لهم بمقاومتهم، وإنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها، فنكصوا على أعقابهم ولم يطيعوا أمره، فعاقبهم اللَّه، وكانوا أحقاء أن يَتِيهُوا في الصحراء أربعين سنة بسبب عنادهم وعصيانهم.

ومات النبي موسى عليه السلام، وصلَّت عليه ملائكة الرحمن ودفنوه في قبر أعدُّوه له، ولا يعلم أحد أين دفن، ولا أين قبره إلا اللَّه سبحانه وتعالى (*)، وهكذا مات صاحب النفس القلقة وقلبه مطمئن بالإيمان.

أ د/ عبد القادر حسين

١٩٩٦/١/١٠م

مدينة نصر

(*) قد صح عن نبينا صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، وهو يتحدث عن موسى عليه السلام قائلًا: «لو كنت عنده لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر» أو كما قال ﷺ.

وفي قيام الملائكة على دفن موسى عليه السلام نحتاج إلى الدليل الصحيح. واللَّه أعلم.

مصحح دار الحرمين

وربما يكون الدليل على صحة ما قلنا من دفن الملائكة لموسى، أنه لو دفن موسى بواسطة البشر، لتناقل الناس ذلك وعلم موضع دفنه، وزاروا قبره. **المؤلف**

□ المـولـد □

موسى عليه السلام هو موسى بن عمران بن يصهر، وينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وكلمة موسى مكونة من مقطعين:

«مو» ومعناها: الماء، و«شى» بمعنى الشجر، فقلبت الشين سينًا في العربية فصارت موسى.

وسمي بهذا الاسم «موسى» لأن أمه ألقته في اليمِّ، فدفعته الأمواج حتى أدخلته بين الشجر، فسمى باسم المكان الذي وجد فيه وهو الماء والشجر.

وقصة موسى النبي مع فرعون الملك قصة حقيقية صادقة لا مجال للكذب فيها أو الادعاء، وخاصة للمؤمنين، وإن كانت تعم الخلق قاطبة مؤمنين وغير مؤمنين.

وتبدأ القصة بما يؤكد وقوع أحداثها حتى يطمئن الناس إليها دون أن يخامرهم الشك في وقوعها، فهي صادرة عن وحي اللَّه، ومن ثَمَّ فهي أكيدة في صدقها، و القرآن أكَّدَها بقوله: ﴿**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم**﴾ [القصص: ٤]، فأكد أحداث القصة بأداة التوكيد «إن».

وفرعون جعل أهل مصر فرقًا تتبعه، وتدين له بالطاعة والولاء، في كل ما يبغيه من فساد أو شر، يستعمل كل فرقة في حرفة من الحرف: فرقة للبناء وفرقة للحرث، وفرقة للحفر، ونحو ذلك.

وكان يستضعف طائفة من أهل مصر، طائفة قد عجزت وضعفت عن

دفع ما ابتليت به من شر فرعون ، فاستحقت ما وقع عليها من البطش والشدة ، وتلك الطائفة هي : بنو إسرائيل .

قتل فرعون بعضهم إثر بعض ، حتى قتل منهم ما يربو من التسعين ألفًا ، وترك البنات أحياء حتى يقوموا بخدمة أتباعه وأشياعه .

فهذا كاهن يقول له : يولد ولد في بني إسرائيل يذهب بملكك ، ويجعل منك عبرة للعالمين . فتوجس فرعون شرًا لهذه النبوءة ، وتطير من وقوعها ، فقتل الأطفال ، واستحيا البنات ، وكان تصرفه غاية في التسرع والحمق ؛ إذ لو صدق فما فائدة قتل الأطفال ، والنبوءة ستتحقق ؟ وإن كذب فما وجه القتل والاستحياء ؟ ولكنه فعل ما فعل لخبث في طويته ، وغلبة الشر على نفسه ، فقد جبل فرعون على الفساد والإفساد ، فاجترأ على خلق كثير يعمل فيهم القتل ويمارس التذبيح .

ولكنا نَمُنُّ على المستضعفين في الأرض ، ونتفضل بإنجائهم من كيد فرعون وبأسه ؛ بل نجعل منهم أئمة يؤتم بهم ، بعد أن كانوا مسخرين لخدمة فرعون وقومه ، ونجعل منهم ورثة لكل ما كان يملكه فرعون وشيعته .

* * *

□ أم مـوسـى □

ألهمنا أم موسى أن ترضع وليدها ، واسمها يارخا من أولاد لاوي بن يعقوب عليه السلام .

فإن خافت أن يحس الجيران بوجوده إذا بكى ، فما عليها إلا أن تضعه في صندوق ، وتلقي به في نيل مصر ، وعندئذ تأمن له فلا تخشى عليه ضيقًا ولا شدة ، ولا تحزن لفراقه ، فسنرده إليها عن قريب ، وهي قريرة العين به راضية النفس عليه ، فلا تجزع لبعده ، وسوف يكون نبيًا مرسلًا مبلغًا رسالة ربه .

أرضعته أمه قرابة ثلاثة أشهر ، إلا أن فرعون ألحَّ في طلب المواليد ، وإرسال العيون في كل اتجاه حتى يأتوا إليه بكل طفل ذكر فيأمر بذبحه ، فخافت أم موسى على ابنها واستبدَّ بها القلق ، وانتابتها الوساوس والأوهام ، فأتت بتابوت ودهنته بالقار ، وألقت بفلذة كبدها في النيل ليلًا ، وقلبها يتمزق من لوعة الفراق ، إلا أنها كانت في ثقة بأن اللَّه سيكفله ويرعاه ، ومن كان كذلك ، لا بد أن يرده اللَّه إليها سالمًا من كل أذى أو سوء .

وكان لفرعون ابنة وحيدة ليس له غيرها ، وكان هو من أحب الناس لها وأكرمهم عليها ، وكانت ابنته مصابة بعلة البرص حتى عجز الأطباء عن علاجها .

التقط آل فرعون الصندوق وبداخله طفل يمصُّ أصبعه ، طفل بريء متين البنيان مليح الوجه ، فأخذوه في عناية فائقة وحذر شديد ؛ ليكون لهم مسرة في القلب ، ومحبة في الفؤاد ، يحدوهم في التقاطه والعناية بشأنه المحبة والتبني اللتان أَبْدَتْهُمَا امرأة فرعون لهذا الطفل الغريب .

لم يترتب على التقاطهم لموسى أن يكون لهم حبيبًا وصديقًا كما كانوا يتوقعون ، بل صار لهم عدوًّا وحزَنًا .

جنود فرعون قتلوا الألوف من الأطفال حتى يتجنبوا نبوءة الكاهن بميلاد طفل ينحّي فرعون عن ملكه ، ويقوض من هيبته ، وقد شاءت حكمة اللَّه أن يربيه فرعون ليكبر ويفعل به ما كان يتخوف به ويحذر منه .

قالت امرأة فرعون : آسيا بنت مزاحم ، وهي من خيار الناس وأكثرهم شفقة وحبًّا للأطفال ، قالت لفرعون زوجها حين أخرج موسى من الصندوق : إن هذا الطفل هو قرة عين لي ولك ، واللَّه أودع حبه في قلبهما بمجرد أن وقع بصرهما عليه .

قالت له : لا تقتلوه عسى أن ينفعنا ، وقد وقع منه النفع حيث برئت ابنة

فرعون من برصها حين مسها بريقه . أو نتخذه ولدًا بالتبني حيث لم يكن لهما ولد ذكر ، دون أن يشعروا أن أخذه سيكون وبالًا على فرعون وقومه وسبيلًا إلى هلاك فرعون وغرقه .

أصبحت أم موسى شاردة الذهن مشتتة الفؤاد ، عيناها ساهمة لا تريم ، ورأسها بعيدة عن التفكير ، ومن فرط اضطرابها على وليدها المفقود ، وضعف بشريتها كادت تفشي سرها وتقول : إن الطفل الذي بداخل الصندوق هو وليدها ، وأنها هي التي ألقته في النيل ، ولكن اللّٰه شدَّ على قلبها بالصبر الجميل والوعد الصادق بأنه سينجو ، وسيكون له شأن عظيم ، وسنجعله من المرسلين .

قالت أم موسى لأخته واسمها مريم بنت عمران ، وقد وافق اسمها اسم أم عيسى ، والصحيح أن اسمها كلثوم لا مريم ، واسم زوجها غالب بن يوشا .

قالت لأخته : قُصِّي أثره ، وتتبعي خبره .

الأم تريد أن تثير نوازع المحبة والوفاء في قلب أخته ، ﴿**وقالت لأخته قصّيه فبصُرت به عن جُنُب وهم لا يشعرون**﴾ [القصص : ١١] ، ولم يقل التنزيل وقالت لابنتها ؛ لأن مدار المحبة للأخوة ، وبها يحصل امتثال الأمر .

فأبصرت أخاها موسى عن بُعْدٍ ، رأته رأي العين ، لا رؤية توهم ، دون أن يشعر بها أحد من قوم فرعون أنها أخته ، أو أنها تتقصى أثره .

ولحكمة أرادها اللّٰه أن جعل موسى يكره أثداء الناس وينفر منها ، فمنعه أن يرضع من ثدي غير ثدي أمه ، حتى يرضى فرعون أن ترضعه أمه قسرًا لا اختيارًا .

قالت كلثوم أخت موسى عندما رأته يرفض قبول الرضاعة من جميع

السيدات اللاتي تقدمن تطوعًا لإرضاعه، وعناية فرعون بشأنه، وطلبهم أن تتقدم امرأة لا يرفض موسى قبول ثديها، قالت أخته: ﴿**هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون**﴾ [القصص: ١٢] أهل بيت يرضعونه ويربونه ويقومون بشأنه، ويحوطونه بالرعاية ولن يقصروا في أمره؟

وزعمت أنها تعرف امرأة قد قتل وليدها فيمن قتل وذبح، وأحب شيء إلى هذه المرأة أن تجد طفلًا بديلًا عن ابنها ترضعه وتعنى بشأنه.

وبطبيعة الحال سعدت امرأة فرعون بهذا الاقتراح الذي يبقي على حياة الطفل حين يجد ثدي امرأة ترضعه ولا ينفر منها.

أتت الأخت بأم موسى، وهو يبكي على يد فرعون، فدفعه إليها، دفعه إلى أمه الحقيقية، فوجد فيها صدرًا حنونا، قد انبعث منه ريح أنس إليها، فالتقم ثديها، ورضع منها حتى شبع واطمأن.

داخل فرعون الشك في أمر هذه المرأة، فكيف لم يكفَّ الطفل عن الصراخ إلا على يديها، وكيف يرفض جميع السيدات ويقبل ثدي هذه المرأة؟ إن الأمر يدعو للتساؤل والريبة، فسألها من أنت؟ فقد أبى كل ثدي إلا ثديك، ولم يرضع من أحد سواك، فما ميزتك عن الأخريات؟ وما شأنك بهذا؟ أظن أن ثمة أمر تخفيه، وينبغي عليك أن تطلعيني عليه.

أنكرت أم موسى صلتها بالوليد، فليست قريبة له، وإنما هي امرأة طيبة الريح، عذبة اللبن، ما أوتي بصبي إلا وقبل ثديي، ومال نحوي.

دفع فرعون الطفل إلى المرأة، وألقاه بين يدي أمه وأجرى عليها ما تستحق من أجر الرضاع، فعادت به إلى بيتها، وهي سعيدة، يغمرها الفرح والحبور، فقد أراد اللَّه أن يرد وليدها إليها، ولا تحزن لفراقه، ولتعلم أن جميع ما وعدها به اللَّه صدق لا يتغير، وحق لا يتبدل، ولكن آل فرعون لا يعلمون من هذا الأمر شيئًا.

مكث موسى في حضن أمه حتى حان وقت فطامه ، فردته إلى فرعون وزوجه آسيا ، فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته يرعيانه بأيديهما ، ويتخذان منه ولدًا لهما .

وبينما هو يلعب بقضيب ، إذ رفعه إلى رأس فرعون فلطمها ، فتطير ، فرعون من هذا الفعل حتى هم بقتله ، وقالت زوجه آسيا وهي ملتاعة جزوع ، تخشى أن يصيبه فرعون بسوء : إنه طفل صغير لا يعقل شيئًا ، وإن شئت برهانًا على أنه لا يدرك من الأشياء ما هو جليل أو حقير ، فاجعل في هذا الطست حجرًا وذهبًا ، وانظر إلى أيهما يقبض ؟

ويروى في هذا المقام أن فرعون حمل ربيبه موسى فأخذ لحيته ونتفها ؛ إذ كانت مرصعة بالجواهر ، فغضب لذلك أشد الغضب وأمر بقتله ، فقالت آسيا لزوجها فرعون : إنه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت ، فأحضر جمرًا في طست ، والياقوت في طست آخر ، فعمد موسى إلى أخذ الجوهر ، فأمال جبريل يده إلى الجمر ، فرفعه إلى فيه فاحترق لسانه ، فكانت منه هذا اللكنة وتلك العجمة ، وفي ذلك دليل على أنه لا يعقل تصرفه ، فكف عنه فرعون وصدق امرأته ، هذه اللكنة التي لم يبرأ منها لسانه إلا بعد أن أصبح نبيًا مرسلًا ، وقد ذكرها القرآن بقوله : ﴿ **واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي** ﴾ [طه : ٢٧، ٢٨] .

* * *

□ الهـروب □

أصبح موسى شابًّا يافعًا قوي البنية تبدو عليه ملامح رجولة مبكرة ، وكان يتجول في المدينة ، فدخل أحد الأزقة قادمًا من قصر فرعون ، وكان القصر بمدينة منف ، وهي ما تسمى الآن بالبدرشين بالقرب من الجيزة. دخله وقت العشاء ، وهو الوقت الذي يسكن فيه الناس في دورهم ، وقد هدأت الأصوات ، لا يسمع للأحياء ضجيج ، ولا للأشياء رنين ، هدوء شديد ، وصمت عميق ، وقد خلت الطرق من السائرين ، فسمع موسى جلبة وضجة ، ووجد اثنين من الرجال يتشاحنان ويقتتلان ، أحدهما ينتمي إلى بني إسرائيل ، والآخر من أشياع فرعون [1] ، واسمه فاتون ، وكان يعمل خبازًا في قصر فرعون ، وقد أراد أن يسخر الإسرائيلي ليحمل له الحطب إلى مطبخ فرعون ، فاستغاث الإسرائيلي بموسى كي يعينه على هذا الخباز المستبد ، وكان موسى قد حباه اللّه بقوة في الجسم ، ومتانة في البنيان ، فدفع الخباز بمجامع يديه ، فسقط الرجل على الأرض قتيلًا لا حراك فيه .

ندم موسى على ما بدر منه ، فقد أزهق نفسًا دون جريرة ارتكبها ، وحفر له حفرة عميقة ودفنه في الرمال .

لم يكن يقصد موسى أن يقتل الرجل ، وإنما حدث القتل بفعل الخطأ ، وما كان يدري أن وكزة من يده تقضي عليه وتقتله . كان ذلك بفعل الشيطان ووسوسته ، فالشيطان عدو لابن آدم ، مضلٌّ له ظاهر العداوة والضلال . واستغفر ربه جريًا على سنن المقربين في استعظام ما فرط منه .

أخذ موسى يدعو ربه متضرعًا إليه يناجيه في إلحاح شديد أن يغفر له زلته ،

---

(١) كان فاتون من أشياع فرعون ، وهو قبطي ، وهي كلمة لا تعني المسيحي بصفة خاصة ، وإنما هي مصطلح أنثروبولوجي قبل أن يكون مصطلحًا دينيًّا ، وهي تضم الكثير من أصحاب الديانات المختلفة الذين ترجع أصولهم إلى العصور المصرية السابقة على ظهور الإسلام ودخوله مصر .

ويعفو عن خطئه ، رب إني ظلمت نفسي بقتل ذلك الخباز دون معصية ، فاغفر لي ذنبي ، واعف عني ما بدر مني ، فاستجاب اللّٰه له وغفر ذنبه ، وعفا عنه ، فاللّٰه غفور لمن تاب ، وهو أرحم الراحمين .

شعر موسى برضا اللّٰه عنه حين تاب عليه وغفر له ، فحفظ لربه هذه النعمة ، وأقسم لربه ليتوبنّ ، وألا يقدم بعد الآن على أمر قد يغضبه ، وناشد ربه بحق إحسانه عليه أن يعصمه من الخطأ ، وأن يحفظه من الزلل ، ولن يكون معينًا لمن تؤدي معونته إلى الجرم والإفساد وقتل العباد .

ورغم عفو اللّٰه عنه إلا أنه كان يخشى العقاب ، فانتابه الخوف ، واستبد به القلق ، وترقب المكروه ، وأيقن أنه لا محالة مقبوض عليه ، وسوف يؤخذ بجرمه ، وسينال أشد العقاب .

وفجأة وجد الإسرائيلي الذي طلب نصرة موسى بالأمس ، وقتل بسببه الخباز ، وجده يستغيث به مرة أخرى ليعينه على رجل آخر من أنصار فرعون .

عندئذ احتد عليه موسى وقال له مغاضبًا : إنك لغوي بيِّن الغواية ، مضلٌ شديد الضلال ، ولقد تسببت بالأمس في قتل رجل بريء ، وتريد الآن أن توقعني في مأزق صعب ، وإثم كبير .

أراد موسى أن يفضَّ المشاجرة بين الإسرائيلي وبين ذلك الرجل ، ولم يرد أن تحتدم المعركة بينهما ، فظن الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس ، ويطلب عونه اليوم أنه يريد أن يبطش به .

صرخ في وجه موسى : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس ، وما تريد إلا أن تكون جبارًا في الأرض تفعل ما تهوى من الضرب والقتل دون نظر إلى العواقب ، وما تريد أن تكون من المصلحين بين المتخاصمين ، تدفع الخصومة ، وتفض الشجار .

وأصبح مقررًا أن موسى هو الذي قتل خباز فرعون بالأمس ، فقرر أن يختفي عن الأنظار ، وأن يولي هاربًا ، وأيقن أن قوم فرعون جدُّوا في طلبه والبحث عنه ليقتلوه .

□ الـزواج □

جاء رجل يسمى خربيل من مكان قصي بالمدينة، وكان بينه وبين موسى صلة قرابة، جاء مهرولًا لاهثًا يبتغي الوصول إلى موسى ولقائه، وأسرَّ إليه أن الأشراف من قوم فرعون يتشاورون في أمرك، ويأتمرون بك، ويودون قتلك، وإني أنصحك بالخروج من البلدة حتى تغيب عن أنظارهم فتفلت من عقوبتهم، وأنا ناصح لك حفي بك، لما بيني وبينك من صلة وقرابة.

خرج موسى من بلدته متجهًا نحو الشام، خرج وهو خائف يترقب أن يجده قوم فرعون ويقبضوا عليه، خرج دون رفيق، وحيدًا هائمًا على وجهه يدعو ربه أن يحفظه من كيد الأعداء فلا يلحقوا به، وسأل ربه أن يحفظه من شرورهم وبغيهم، فلا ينالونه، فهو امتحان صعب يخشى الزلل فيه، ولكنه وجد رحمة اللّه في انتظاره تحوطه بالرعاية والعناية.

توجه إلى الشام حتى بلغ قرية تسمى «مدين» وهي قرية شعيب عليه السلام، وكان شعيب قد اتخذ فيها دارًا فنسبت إليه، وهو في طريقه إلى هذه القرية يحدوه التوكل على اللّه، وحسن الظن به، وبينا هو سائر ظهر له ثلاثة طرق فسلك الطريق الوسط وهو الطريق الذي اعتاد أن يمر به السائرون.

جاء القوم يتعقبونه، ودخل في نفوسهم أن الفارَّ لا يأخذ الطريق المأهول خوفًا على نفسه من العثور عليه وأسره، بل يأخذ أحد الطرفين، فشرعوا في سلوكهما، فلم يعثروا له على أثر، وذلك من فضل اللّه عليه، فقد اختاره لمهمة لا يعلمها أحد سواه.

بلغ موسى قرية مدين، فوجد بئرًا على ثلاثة أميال منها. والناس ملتفين حولها محيطين بها يريدون سقي مواشيهم ودوابهم، وبالقرب منهم امرأتان:

صافوريا وليَّا ابنتا شعيب ، تمنعان أغنامهما عن التقدم نحو البئر ، حتى لا يزاحما الناس في السقي ، فربما كان ضعفهما وحياؤهما يمنعانهما عن ذلك .

فخطر بباله أن يسألهما عن سبب صدوفهما عن السقي كدأب هؤلاء الناس الذين يتزاحمون على البئر . وجاز له أن يخاطب امرأتين أجنبيتين عنه ؛ لأنه يأمن على نفسه الوقوع في الخطأ والتردي إلى المعصية ، والأقدار قد سيرته في هذا الطريق ومحادثتهما ، فسوف يكون له شأن مع إحدى ابنتي النبي شعيب .

انبرت إحدى الفتاتين قائلة : من عادتنا ألا نسقي مواشينا حتى ينتهي الناس من سقي مواشيهم ؛ حذرًا من مخالطة الرجال ، وعجزًا عن مدافعتهم ، فإذا انصرفوا بعد أن يقضوا مأربهم ، سقينا من فضل مواشيهم ، وأبونا شعيب شيخ طاعن في السن عظيم القدر ، فلا يستطيع أن يخرج ، فيرسلنا إلى الرعي والسقي اضطرارًا .

﴿**قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير**﴾ [القصص: ٢٣] . والرعاء: هم الذين يرعون المواشي ، والرعاة : هم الذين يرعون الناس ويسوسون أمورهم ، وحتى يصدر الرعاء ، أي : يعودون إلى دورهم بعد أن اكتفوا بسقي دوابهم ومواشيهم .

ولكن موسى أبى أن تبقى الفتاتان حتى ينتهي الناس من سقي مواشيهم ، فزاحم القوم في السقي ، ولكنهم أرادوا أن يكيدوا له ، ويعوقوه عن مراده ، فوضعوا حجرًا على فوهة البئر تعجيزًا له ، حجر لا يقوى على رفعه سوى بضع رجال ، فرفعه وحده بذراعيه القويتين رغم ما به من سغب وتعب ، فسقى لهما الغنم .

وعندما فرغ من السقي قبع تحت شجرة يتفيأ ظلالها ، ويتقي بها لفح الشمس ، فهو جائع منهوك القوى ، وسأل ربه أن يهبه الخير والزاد والطعام

فهو مفتقر إليه في جميع الأحوال، وأهل للفضل في كل الأوقات.

رجعت الفتاتان إلى أبيهما شعيب، وأخبرتاه بما حدث من شأن الرجل القوي الأمين الذي ساعدهما وسقى لهما، فقد أعجبتا بمروءته وقوته.

قال شعيب لابنته الكبرى صافوريا: اذهبي إليه وادعيه لنا، فإني في شوق إلى التعرف إليه ومكافأته.

وجاز لشعيب أن يرسل ابنته إليه؛ لأنه ثبت له صلاح موسى وعفته، وأراد أن يتخذ منه ولدًا يعينه في شئون الحياة، فلم يكن لشعيب ولد ذكر.

فجاءته صافوريا تمشي على استحياء كعادة الأبكار من الفتيات، ولشرف عنصرها وكريم نسبها قالت له: ﴿**إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾ [القصص: ٢٥].

لبّى موسى طلب شعيب وجاءه يقص عليه ما حدث من استنصار الإسرائيلي على الخباز، وأن قوم فرعون يتعقبون أثره ويريدون قتله.

طمأنه شعيب وقال له: ﴿**لا تخف نجوت من القوم الظالمين**﴾ [القصص: ٢٥]، نجوت من فرعون وأشياعه، فليس له سلطان بأرضنا، ولسنا في مملكته حتى يتعقبك.

دخلت الطمأنينة قلب موسى، وزال عنه القلق بما سمعه من شعيب، وانبرت صافوريا ابنة شعيب الكبرى تقترح على أبيها أن يستأجر موسى لرعي أغنامهم والقيام بأمرها، ولو فعلت ذلك يا أبت لاستأجرت رجلًا قويًّا أمينًا، ﴿**إن خير من استأجرت القوى الأمين**﴾ [القصص: ٢٦]، فهو قوي؛ لأنها شاهدته وهو يزحزح الحجر عن فوهة البئر، وهو حجر لا يقوى على رفعه سوى بضع رجال، وشاهدته وهو ينزع الدلو الكبير ويسقي به الأغنام.

وهو أمين؛ لأنه خفض رأسه، وأطرق ببصره إلى الأرض عند دعوة شعيب

وسيره في الطريق إليه ، فلم ينظر إلى وجه صافوريا تعففًا وتورعًا ، كما أنه أمرها أن تسير خلفه ، لحفظ بصره ، وصيانة نفسه عن اقتحام رؤيتها متفحصًا متطلعًا .

قال شعيب النبي لموسى عليهما السلام بعد أن عرف من ابنته قوته وأمانته وخلقه :

إني أريد أن أزوجك ابنتي صافوريا وهي إحدى ابنتي ؛ إذ ليس عندي سواهما ، ولكن بشرط أن تكون أجيرًا عندي ، ترعى غنمي لمدة ثماني سنوات ، وهذا شرط للأب وليس صداقًا لابنته . قال شعيب : ﴿**تأجُرني ثماني حِجَج**﴾ [القصص : ٢٧] ، ولم يقل : تأجرها . فإذا زدتها إلى عشر فهو تفضل منك وليس إلزامًا عليك ، فلا أريد أن أشق عليك .

فأجاب موسى : ستجدني إن شاء الله من الصالحين في حسن المعاملة . ولين الجانب والوفاء بالعهد ، وما شرطته عليَّ قائم بيني وبينك ، فلا أنا أخرج عما شرطت عليَّ ، ولا أنت تخرج عما شرطت عليك ، وأي المدتين وفيتك بأداء الخدمة فيها فلا تثريب عليَّ في قضاء المدة الأطول - العشر سنين - أو في قضاء المدة الأقصر - وهي ثماني سنين - والله شهيد على ما وقع بيني وبينك من الشرط ، ولا سبيل إلى واحد منا الخروج عنه أصلًا .

جمع شعيب أهل مدين من المؤمنين ، وزوَّجه ابنته صافوريا وأشهر زواجهما ، وبنى موسى على زوجه ، وقام برعي الغنم لشعيب مدة عشر سنين ، موفيًا بعهده ، مرتبطًا بشرطه .

* * *

□ النـــداء □

استأذن موسى من شعيب في الخروج من مدين لزيارة أمه وأخيه هارون في مصر ، فخرج بزوجه ، وسلك طريقًا غير مأهول لقصره رغم صعوبته ، فلما أتى وادي طوى ، وهو الجانب الغربي من الطور ، ولد له ابن في ليلة مظلمة ذات برد وثلج ورياح ، فقدح زنده ليخرج نارًا يستدفئ بها هو وأهله ، فلم يخرج زنده نارًا ، وبينما هو في حيرة من أمره ، وشدة قلقه على زوجه وابنه ، لمح نارًا من بعيد تخطف بصره على يسار الطريق من جانب الطور ، فظن أنها نار الرعاء أشعلوها ليصطلوا بها ، قال لزوجه وخادمه : أقيموا مكانكم ولا تتبعوني ، فقد أبصرت على البعد نارًا لا شك فيها بحال من الأحوال ، وإني ذاهب إليها رجاء أن آتي لكم منها بجذوة تصطلون بها ، وتنير لكم المكان ، أو لعلي أجد عندها من يهديني إلى الطريق ، ويدلني عليه ، فالنار قلما تخلو من أناس يتحلقون حولها .

بلغ موسى موضع النار ، ورأى شيئًا أدهشه وعجب له ، رأى شجرة خضراء ندية أحاطت بها نار بيضاء تتقد كأضوإ ما يكون ، وقد أحاطت بها النار من جوانبها كافة ومن أسفلها إلى أعلاها ، ولكنه لم ير بجانبها أحدًا ، فتعجب من شدة الضوء ووهجه ، كما تعجب من شدة خضرة الشجرة ، فلا النار تأكلها ، ولا هي تطفئ النار بنداوتها أو تغير من ضوئها . ثم سمع هفيف الملائكة وتسبيحها ، ورأى نورًا وهاجًا لا تكاد العين تطيقه ، فأخفى عينيه بيديه خوفًا من هذا التوهج الذي لم ير مثيلًا له من قبل ، وخشي من شدة المفاجأة وقوة تأثيرها ، ولكن اللَّه ألقى السكينة في نفسه ، والطمأنينة في قلبه .

سمع نداء عجيبًا غريبًا لم يعهده من قبل ، يبادره بخلع نعليه : ﴿إني أنا

ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا اللَّه لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ...﴾ [طه: ١٢ - ١٤] يقرره بوحدانية اللَّه وعبادته وإقامة الصلاة لذكره.

تلفت موسى يمنة ويسرة وصوَّب نظره في كل اتجاه عساه أن يعرف المتكلم ومصدر الكلام ولكنه لم يجد أحدًا.

وتكرر النداء باسمه وأكد له أن المتحدث هو اللَّه جل جلاله: **﴿يا موسى * إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾** [طه: ١١،١٢]، طلب اللَّه من موسى أن يخلع نعليه؛ لأن ذلك أدخل في التواضع وحسن الأدب وهو في مقام اللَّه عز وجل.

فأنت في حضرة صاحب العزة، في مكان طاهر بعيد عن كل دنس، فخلع موسى نعليه، وألقى بهما وراء الوادي، ثم أمره اللَّه أن يستمع لما يوحى إليه.

فأنا اللَّه الواحد الأحد، لا رب سواي، فخصني بالعبادة والتوحيد ولا تشرك بي شيئًا أو أحدًا، ومن عبادتي أن تقيم لي الصلاة فهي ذكر لي، والصلاة جامعة لكل ما في الذكر من اشتغال بالعبادة سواء أكان باللسان أم بالجنان.

أراد اللَّه أن يمنح نبيه موسى عليه السلام التأييد والقوة والطمأنينة فسأله: **﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾** [طه: ١٧].

قال: **﴿هي عصاي أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾** [طه: ١٨] سأله اللَّه عما في يده وهو يعلم يقينًا ما بيد موسى، ولكن السؤال أراد به أن يقرر موسى على أن ما في يده مجرد عصا شأنها شأن العصيِّ التي بيد الرعاء التي يستعملونها في مقاصدهم ومنافعهم.

وطلب منه أن يلقي عصاه حتى يرى من شأنها ما لم يخطر له على بال، فألقاها على الأرض، فإذا هي تنقلب حية صفراء في غلظ العصا، ثم انتفخت وعظمت حتى صارت ثعبانًا هائلًا، فهي تشبه الجان - حية كحلاء العين لا تؤذي وهي منتشرة في دور الناس - تشبهه في مبدإ أمرها في الجلادة وسرعة الحركة، ثم تشبه الثعبان في نهاية أمرها حتى تلقي الفزع في روع من يراها فيبتلع كل شيء يمر به من حجر وصخر، وعيناه تتقدان كالجمر، ويُسمع لأنيابه صرير مخيف.

أراد اللّٰه أن يثبت قلب موسى ويزيده اطمئنانًا وسكينة فقال: خذها ولا تخف، فسنعيدها عصا كما كانت.

كان قلب العصا حية أمام موسى نوعًا من التدريب على هذه المفاجأة، فإذا انقلبت حية عظيمة أمام سحرة فرعون تلقف حبالهم وعصيهم لم يكن مندهشًا ولا خائفًا مما يحدث أمامه.

وأيد اللّٰه نبيه موسى بآية أخرى تدل على عظمة الخالق وتأييده لرسوله بأن يضم يديه إلى جنبه فيدخل يده اليمنى تحت إبطه الأيسر من تحت عباءته فإذا أخرجها كان عليها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر ويسد الأفق، فإذا ردها إلى جنبه عادت إلى ما كانت عليه من لونها الأول بلا نور أو بريق.

أراد اللّٰه من قلب العصا حية، وجعل اليد بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس ليري موسى بهاتين الآيتين بعض معجزاته الكبرى.

قال اللّٰه لرسوله موسى: ﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾ [طه: ٢٤]، اذهب إلى فرعون وملئه بهاتين المعجزتين العصا واليد البيضاء، فقد طغى وتجاوز حد العبودية وادعى الألوهية. فهي رسالة عليك أن تضطلع بأعبائها.

سأل موسى ربه أن ييسر له أمر الدعوة إلى فرعون وملئه، فيشرح صدره، ويوسع قلبه حتى لا يضيق بسفاهة المعاندين ولجاجتهم، ولا يخاف من

كثرتهم وحدة شوكتهم .

ودعا ربه أن يحل عقدة لسانه التي أصابته حين كان في حجر فرعون وأمسك بالجمرة فأطفأ حرارتها بأن وضعها على لسانه فأحدثت به بعض العيب ، فسأل ربه أن يجعله فصيحًا حتى يقوم بأمر الدعوة على أحسن وجه .

وطلب من ربه أن يجعل له وزيرًا من أهله يعينه في تحمل أعباء الرسالة ، وأن يكون من خاصته حتى يثق به ، ولا أدعى للوثوق بأحد سوى أخيه هارون ، فإذا جمع بين المسئولية والأخوة فذلك دليل المحبة والثقة ، وتكون عندئذ الاستعانة في موضعها الملائم لها ، حيث يقوي بها ظهره ويحكم قوته ويكون عونًا له في أداء الرسالة على أتم وجه ، فهارون أخي نعم الوزير ، فهو أكبر مني سنًّا وأفصح لسانًا ، وقد حقق اللّٰه رجاء نبيه موسى باتخاذ هارون وزيرًا له يعينه في أداء الرسالة .

هذه من نعم اللّٰه على نبيه موسى ، وقد سبق أن أنعم عليه بكرامات دون أن يسأله منها شيئًا . فقد أنقذه من القتل والضياع حين كان طفلًا رضيعًا . ونجاه حين أعان الإسرائيلي على الخباز فقتله ، وأنقذه من كيد الأعداء حين فر هاربًا من مصر وسلك الطريق المأهول فظنوا أنه سار في طريق آخر فأفلت من عقوبتهم .

فاذهب يا موسى أنت وأخوك هارون ، أنت بطريق الأصالة وهارون بطريق التبع إلى فرعون ذلك الطاغية المستبد المدعي للألوهية ، وكان اسمه الوليد بن مصعب ، وخاطبه بلين ورفق من غير خشونة ولا تعنيف ، إذ كان في فرعون حدة وخشونة ، فعالج حدته وخشونته باللين والحلم وخاطبه في رفق ومودة لعله يتذكر قدرتي ويخشى عقوبتي .

وسنقويك بأخيك هارون كما نقوي اليد بعضدها ، ونجعل لكما الهيبة والغلبة على الأعداء ، والمحبة في قلوب الأحباب ، فأنتما ومن اتبعكما الغالبون .

فلا تخافا من فرعون وقومه ، فنحن معكم بالنصرة والعون ، ومع فرعون

بالقهر والجبر، والله مع أوليائه وناصرهم على أعدائه، ومن كان الله معه حفظه من كل جبار عنيد.

وسمي بفرعون؛ لأنه تفرعن وتجبر(*)، إذ يقال للطغاة فراعنة وجبابرة.

ولذا كان موسى وأخوه هارون لا يتوقعان من فرعون إلا كل مكروه، ولا يطمعان منه في إيمان بالله أو عبودية له؛ بل خافا أن يعجل فرعون لهما العقوبة قبل أن يظهرا معجزات الله التي أيدهم الله بها، وقبل أن تتم دعوة موسى إليه، فيزداد طغيانًا وحدة، ويطلق عليك ما لا ينبغي لكمال جرأته وقلة أدبه.

وهكذا لمَّ موسى شمله وانطلق من الطور متجهًا إلى مصر تحدوه عناية الله سبحانه. لم يكن له علم بالطريق، وليس معه ما يكفي من الزاد، ولا يصحبه أو يؤنسه في هذا الطريق الموحش سوى عصاه، يظل صاديًا ويبيت طاويًا، يصيب من ثمار الأرض، ومن صيد البر شيئًا قليلًا يقيم به أوده، وظل على هذا الحال حتى وطئ أرض فرعون.

واجه موسى فرعون طلب منه أن يخلي بني إسرائيل، يطلق سراحهم ويتركهم وشأنهم ليذهبوا إلى أرض الشام، مسكن آبائهم وذويهم.

عرف فرعون موسى من أول وهلة، فقال له ساخرًا ممتنًّا: ﴿**ألم نربك فينا وليدًا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين**﴾ [الشعراء: ١٨-١٩]، ألم تنشأ في حجرنا وتحت رعايتنا؟ ألم تمكث ثلاثين عامًا بين جدران قصرنا؟ وبعدها خرجت إلى مدين ومكثت بها عشر سنين، ثم عدت إلينا مرة أخرى تدعونا إلى ربك، فمن هو ربك؟ أنسيت

(*) المشهور أن (فرعون) هو لقب حاكم مصر، والنجاشي: هو لقب حاكم الحبشة، وكسرى لملك فارس، وقيصر لملك الروم، بغض النظر عن الأشخاص، فالأشخاص تتغير واللقب ثابت والله أعلم. مصححه.

أنك قتلت فاتون الخباز أحد أتباعي الذي كان يعمل بقصري وهربت ؟

وهكذا أخذ فرعون يعدد نعمه على موسى ، ويذكر له أياديه البيضاء عليه من تربيته وتنشئته حتى بلغ مبلغ الرجال ، فأنت - إذًا - من الجاحدين لنعمي عليك ، المنكرين لحق تربيتي حيث قتلت واحدًا من أعواني وخاصتي .

غير أن موسى اعتذر عن هذه الفعلة ، فقد أخطأ طريق الصواب ، أخطأ لا عن عمد ؛ إذ كان مُراده تأديبه وليس قتله .

خفت أن تؤاخذني بجنايتي ، ويصيبني جنودك بأذى لا أستحقه ، ففررت منكم متجهًا صوب مدين حذرًا على نفسي ، ولما عدت من مدين وهب لي ربي العلم والحكمة وأرسلني إليكم بالتوراة .

فلا تمنَّ عليَّ بتربيتك لي في قصرك ؛ لأنك جعلت بني إسرائيل عبيدًا لك ، ذبحت أبناءهم ، وسمت نساءهم سوء العذاب ومشاقّ الخدمة والخسف ، وهذا هو السبب في ضمِّي إلى قصرك وتربيتك لي . ولو أنك لم تقهر بني إسرائيل ولم تذبح أبناءهم لتكفلت أم موسى بتربية موسى ، ولما قذفته في اليمّ ، ولم يصل إلى قصرك ، فكيف تمنن على موسى وأنت سبب بلواه ؟ ﴿**وتلك نعمة تَمُنُّها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل**﴾ [الشعراء : ٢٢] ، أي صيرتهم عبيدًا وقهرتهم وأذللتهم ، فاعبد ربك وهو رب العالمين .

﴿**قال فرعون وما رب العالمين**﴾ [الشعراء : ٢٣] ، وأي شيء هو ذلك الرب الذي ادعيت أنك رسوله ، وما حقيقته ، ومن أي جنس هو ؟ إذ ينكر فرعون أن يكون ثمة إله غيره ، أو يكون للعالمين رب سواه .

قال موسى : إن رب العالمين هو رب السموات والأرض وما بينهما من أفلاك وكواكب ونجوم ، فالرب هو الذي خلقهما ورزق من فيهما ودبر أحوالهما وصرف أمورهما .

أوجس فرعون خيفة أن يؤثر كلام موسى في قومه فينقادوا إليه ويخرجوا

عن طاعته، فقال لمن حوله من أشراف قومه، ألا تستمعون وتستنكرون وتتعجبون لما يقول، أهناك رب سوى فرعون؟، أنا ربكم الأعلى.

وليس ثمة أرباب سواي. والتفت إلى وزيره هامان يأمره أن يشيد له قصرًا عاليًا يبلغ عنان السماء فيطلع إلى ذلك الإله الذي يزعم موسى وجوده، ويكذب هذه الفرية أمام قومه وأتباعه.

وطلب من هامان أن يوقد له على الطين، ويصنع له آجرًا يقيم منه ذلك البناء الشامخ العالي كالمنارة لعله يقف على إله موسى ويطلع عليه، وحتى يتيقن الجمع أن موسى كاذب في دعواه أنه مرسل من قبل إله آخر ﴿**وإني لأظنه من الكاذبين**﴾ [القصص: ٣٨]، أراد فرعون أن يموه الأمر على قومه وإن كان في قرارة نفسه يعتقد أنه مخلوق وليس خالقًا، والمخلوق لا يكون إلهًا. فأظهر فرعون وقومه الكبر والصلف وترفعوا على الإيمان وتعاظموا على دعوة موسى ولم ينقادوا إلى الحق والصواب، واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق، ولكنه كبر زائف، حيث ظنوا أنهم مخلدون على هذه الأرض لن يعتريهم موت ولن يواجههم بعث أو حساب.

ولا شك أن موسى الذي يزعم أنه مرسل إليكم مجنون لا محالة، قال ذلك فرعون وهو مغيظ محنق ميال إلى العقوبة فهدد موسى كما يهدد الجبابرة ﴿**لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾ [الشعراء: ٢٩]، ولألقينك في غياهب الظلام، وأنت تعرف الهول الذي يلاقيه السجين، فإني أتركه في هوة سحيقة يعاني سكرات الموت حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة.

قال موسى وهو متيقن من نصرة الله له: وما بالك إذا أتيتك بسلطان مبين وبرهان صادق، وحجة ظاهرة لصدق ما أقول، أتؤمن بالله الذي أرسلني؟ وإن لم آت بهذه الحجة فافعل بي ما تشاء وعاقبني كما تريد.

إن الإيمان بالله الواحد الأحد أمر حتمي لمن يفكر ويقدر، لمن يتمعن

ويتدبر، أليس هو الذي جعل لكم الأرض بساطًا ممهدًا، وجعل لكم فيها طرقًا متشعبة بين الجبال والأودية والبراري تنتقلون فيها من مكان إلى مكان، حيث تقضون مآربكم. وأنزل عليكم من السماء مطرًا فأخرجت الأرض بواسطته ألوانًا من النبات مختلفة الأشكال والمذاق والرائحة، وكثيرًا من المنافع بعضها صالح للبشر، والآخر صالح للحيوان، لتأكلوا منها أنتم ودوابكم، هذه الثمار والحشائش والنباتات كلها من صنع اللّٰه ولا يقدر عليها غيره.

أليس في كل هذه النعم من تمهيد الأرض، وشق الطرق بين الجبال، وإنزال المطر من السحاب، وإخراج النبات من الأرض؟ أليس في ذلك علامات على وجود الخالق الصانع عند أصحاب العقول، وأُولي النهى؟.

من تراب الأرض خلق أباكم آدم، وستعودون إلى التراب حين يأتيكم الموت، ومن هذه الأرض تخرجون مرة أخرى لملاقاة الحساب.

ولكن فرعون شأنه العناد والتكذيب، فِمن فرط عناده وصلفه امتنع عن قبول الدعوة وكذب بها.

جاءهم موسى بمعجزاتنا الحاضرة منها كاليد والعصا، والمرتقبة كالتوراة التي أوحى اللّٰه بها إليه، فهي نور للقلب، وهداية إلى الشرائع، وطريق إلى الأحكام، وهي أول كتاب اشتمل على الشرائع وضم الأحكام، بخلاف ما قبله من الكتب، فلم تشتمل إلا على الإيمان باللّٰه وتوحيده، ومن ثم قيل لها صحف، كصحف إبراهيم، وإطلاق الكتب عليها من قبيل المجاز.

وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون أن يتخذا لقومهما بيوتًا يرجعون إليها في السكنى والعبادة، وأن يتخذوا من هذه الدور مكانًا للصلاة يتجهون فيها نحو القبلة، وهي الكعبة، وموسى كان يصلي إليها، متضرعًا إلى ربه: لقد آتيت فرعون وملأه من الأشراف كل زينة من لباسٍ مرفه، ومنحتهم العيش الرغد، وأعطيتهم الأموال الجمة، والمتاع والضياع، ولم يشكروك على ما منحتهم

من نعم، ولكنهم توسلوا بذلك إلى مزيد من البغي والطغيان، فكان ضلالهم بدلًا من هدايتهم وكفرهم بدلًا من إيمانهم، وكان عاقبة أمرهم خُسرًا. وسأل موسى ربه ﴿**ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس: ٨٨]، فدعا ربه أن يطمس على أموالهم بأن يُذهب منفعتها ويمسخها حجارة ويغيرها عن هيئتها؛ لأنهم يستعينون بها على معاصيك، وكان الأجدر بهم أن يستعملوها في طاعتك وسلوك سبيلك.

واستجاب اللَّه لدعاء نبيه موسى فصير دراهمهم ودنانيرهم وطعامهم وما يأكلونه من بقول سواء أكان عدسًا أم فولًا أم جوزًا، كلها صارت مصورة منقوشة على هيئة الحجارة، وصار كل ما لديهم من فواكه مسخًا لا ينتفعون به.

وبعد أن مسخ اللَّه أموالهم وصيرها حجارة غير نافعة لهم، سأل موسى ربه أن يجعل قلوبهم مختومًا عليها لا ينفذ إليها إيمان حتى يعاينوا أشد العذاب الذي يستحقونه على كفرهم.

* * *

◻ السحرة ◻

أنكر فرعون على موسى ما جاء به من العصا التي كانت في يده فانقلبت فجأة إلى شيء يشبه الثعبان؛ بل هي ثعبان واضح الصورة، فهو أعظم الحيات جسمًا، خفيف الحركة، وثاب الخطوة، فدب الرعب في قلب فرعون، وسأل موسى أن يرد الثعبان إلى هيئة العصا التي كان عليها.

ونزع موسى يديه من فتحة عباءته فإذا هي نور وهاج وبياض ناصع من غير برص ولا سوء، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق.

جزع فرعون من هذا المشهد العجيب وهذه الصورة الفريدة، ودخل في روعه أن موسى ساحر فائق في علم السحر، فهو يقوم بأعمال تحتوي تخيلات وهمية لا حقيقة لها، وقال لأتباعه: إنه يريد بسحره أن يخرجكم من أرض مصر ويتغلب عليكم بسحره، فبماذا تشيرون عليَّ، وكيف ندفع عنا سحره، ونرد قهره؟.

وهكذا ظهر فرعون في صورة من يسأل المشورة من قومه الذين يعتبرهم عبيدًا في مملكته، بعد أن كان يدعي أنه الإله الأوحد وأنه الرب الأعلى، واستشعر الخوف من موسى واستيلائه على ملكه.

طلب أشياع فرعون منه ألا يتعجل في أمر موسى وأخيه هارون، وأن يتروى في شأنهما، وألا يقتلهما قبل أن يتكشف كذبهما حتى لا يسيء عبيدك الظن بك. ولكن ابعث في أقطار مملكتك وصعيد مصر من يجمع لك السحرة المرموقين، وينتخب منهم من يستطيع معارضة موسى وسحره، فإذا تفوقوا عليه وقتلته، قتلته دون لوم من أحد.

بعث فرعون الشرطة ليجلبوا له السحرة من أقطار مصر، من صعيد مصر

ومنخفضها، فجمعوا عددًا وفيرًا يتجاوز الآلاف، حتى يقال إنهم بلغوا سبعين ألف ساحر.

ولما حضر ذلك الجمع الهائل من السحرة أيقن فرعون أن موسى هالك مهزوم لا محالة، فلا جدوى من سحره، ولا أمل في انتصاره.

قال فرعون لموسى إنك تدعي قلب العصا ثعبانًا، واليد شعاعًا، فأنت ساحر بارع، ولكنا سنأتيك بسحر أشد من سحرك وأعتى من تهويماتك فلن تتغلب على سحرتنا، وإن شئت فاضرب لنا موعدًا تلتقى فيه مع سحرتنا، على أن يكون في مكان وسط بينك وبينهم، يستوي فيه الطرفان من حيث المسافة، في مكان مستوٍ لا يحجب العين ارتفاعه أو انخفاضه.

لم تتزعزع ثقة موسى في نفسه، ولم يُبال بادعاءات فرعون وغروره، فاللّه مؤيد لرسوله ولن يتخلى عنه أبدًا. وضرب لفرعون موعدًا، وهو يوم عيدهم عيد النيروز الذي يجتمع فيه الناس من كل صوب، حتى يكون الأمر بمشهد خلقٍ عظيم، فلا ينكرون المعجزة بعد إبطال سحر السحرة، وما يخلب أبصار الناس. وأن يكون ذلك وقت الضحى ليكون أبعد عن الريبة وفي وضح النهار، إذ لا مجال للشك في هذا الوقت المبكر حين تبزغ أشعة الشمس.

أتى السحرة بأدواتهم وتأهبوا لكيد موسى والتغلب عليه وما جاء به من سحر.

وحان موعد اللقاء بين موسى وسحرة فرعون، فحثهم موسى على نبذ الافتراء على اللّه، وألا تقابلوا معجزة الرب بسحر السحرة، فإن فعلتم فسيهلككم ويستأصلكم بعذابه، وقد خاب من افترى.

حين سمع السحرة وعيد موسى تشاوروا فيما بينهم، وتسارُّوا حتى لا يسمع موسى ما يقولون وما يدبرون فيأخذ الحيطة من سحرهم، ويتأهب لإبطال ما يخيلونه للناس ويطلقون عليه سحرًا، وإذا تغلب عليهم موسى فسيظهر مذهبه في السحر، ويخبو سحرنا، وعندئذ يعلو مذهبه ويرتفع شأن دينه.

وعلينا أن نجمع مكرنا وكيدنا وحيلتنا في قهر هذا المزاحم ، وإذا رميناه بقوس واحد كان الوقع شديدًا عليه وأبطش به ، ولنكن مصطفين متحدين ليكون ذلك أشد لهيبتنا وأقوى لعزيمتنا ، فلا يفوز بالمطلوب إلا من غلب وانتصر ، وارتفع بين الناس بعلو الرتبة والمكانة .

توهموا أنهم بالتأخير وحسن التدبير ، وبذل الجهد والتشمير يغيرون شيئًا من التقدير ، ولكن اللّٰه غالب على أمره سابق في حكمه ، وعند حلول الحكم فلا سلطان للعلم أو الفهم .

وسألوا فرعون أن يرصد لهم مكافأة سخية إذا انتصروا على سحر موسى وألحقوا به الهزيمة .

وأكد لهم فرعون أنه سيجزل لهم المكافأة ، وسيكونون من المقربين لديه ، فهم أول من يدخل عليه وآخر من يخرج من عنده ، وكان ذلك من أعظم المراتب عندهم ، وأجلّها قدرًا لديهم .

طمأنهم فرعون وشد من أزرهم حين أجابهم إن لكم لأجرًا عظيمًا ومكانة كبيرة إن انتصرتم على ذلك الساحر الدعيِّ وغلبتموه على أمره .

وبدأت المعركة بين الحق الواضح والباطل الزائف ، بين موسى النبي الرسول وبين السحرة المأجورين المدعين من قوم فرعون .

تأدب السحرة مع موسى فخاطبوه بحديث لين كان سببًا في إيمانهم ، ودافعًا لهم على عدم إنكار رسالته بعد أن تغلب على سحرهم .

قالوا : يا موسى إما أن تلقي عصاك أولًا وإما أن نكون نحن الملقين لحبالنا وعصينا ، فحبالهم كثيرة وهم سوف يستمرون في إلقائها فترة طويلة لكثرة سحرتهم ، وأنت لك عصا واحدة لا تقف أمام الكثرة الهائلة من حبالنا فخيروا موسى أن يبدأ بالإلقاء أو يبدءوا هم .

طلب موسى منهم أن يبدءوا بإلقاء عصيهم وحبالهم ازدراء لما يقولون وما يصفون .

فلما ألقوا ما ألقوا سحروا أعين الناس ، وخيلوا لهم الباطل حقًّا ، واللعب جدًّا ، وموّهوا حبالهم وعصيهم حتى ظن الناظرون أنها ثعابين في الحقيقة تتلوى أمامهم وتجري بساحتهم ، فدخل الروع قلوبهم ، وملأت الرهبة نفوسهم لما جاءوا به من سحر عظيم .

جمعوا حبالًا غلاظًا ، وأخشابًا طوالًا ، كأنها حيات جسام ، ولطخوا تلك الحبال بالزئبق ، وجعلوا الزئبق داخل العصي ، فلما أثرت حرارة الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض ، فخيل للناس أنها تتحرك وتتلوى باختيارها ، وصارت الساحة كلها مليئة بالحيات .

أوحينا إلى موسى أن يلقي عصاه ، فألقاها فإذا هي حية عظيمة ، ثعبان كبير أصفر الجلد ، ذكر فيه من القوة والنشاط على غير ما تقع عليه الأبصار ، له عرف كعرف الفرس ، يبدو للعين ثعبانًا حقيقيًّا ، ولا يشك أحد في كونه ثعبانًا ، ولا يختلج ببال شخص كونه من جنس العصا ، كان الثعبان على ظهره شعور سود مثل الرماح الطوال ، فاغرًا فاه ، مهيبًا مريعًا .

فإذا الثعبان يلقف كل ما يزوّرون ، ويبتلع حبالهم وعصيهم ، ابتلعها بأسرها ، ثم أقبل الثعبان على الحضور فاغرًا فاه ، فولّوا مدبرين مزدحمين متدافعين ، ينتابهم هلعٌ شديد حتى هلك منهم جمع غفير لا يعلم عددهم إلا اللّٰه سبحانه ، ثم أمسك موسى بالثعبان فصار عصا كما كانت قبل أن يلقيها .

قلّب السحرة الأمر على وجوهه كافة ، لو كان ما أتى به موسى سحرًا ، لبقيت حبالنا وعصيّنا ، ولكنها اختفت ولم تبق ولم تدم ، فليسّ إذًا ما فعله موسى سحرًا ، ولا شبيهًا بالسحر ، فموسى صادق في قوله ، وما فعلوه هم من قبيل الإفك والبطلان ، وما اقترفوه ليس إلا من مظان السحر والبهتان .

انهزم فرعون وقومه وصاروا أذلاء مدحورين، مبهوتين مندهشين ودعاهم هذا الانهزام غير المتوقع أن يخرُّوا على الأرض سجَّدا، وكأنما ألقاهم على وجوههم أمر عصيب ﴿**وألقي السحرة ساجدين**﴾ [الأعراف: ١٢٠].

آمنت السحرة برب العالمين: رب موسى وهارون، وتبع موسى خلق كثير. اشتد غضب فرعون على قومه الذين خرجوا عن طاعته، واتبعوا موسى في دينه، فقال فرعون ثائرًا محنقًا موبخًا لهم. كيف تؤمنون بموسى ورب موسى قبل أن أمنحكم الإذن بذلك، إنها حيلة تحتالون بها عليَّ متآزرين مع موسى، لقد مكرتم بي وستعلمون عاقبة مكركم.

استعمل فرعون مع قومه الآبقين التهديد العنيف، والتخويف الرهيب وأكد تهديده بقوله: ﴿**لأقطِّعَنَّ أيديَكم وأرجلكم من خلاف**﴾ [الأعراف: ١٢٤]، أي يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، ولأصلبنكم على شاطئ نهر مصر وسأرفعكم على جذوع النخل حتى يشاهدكم كل الناس من أي مكان، تنكيلًا لكم وفضيحة لأمركم.

ولكن الذي يدخل الإيمان قلبه وتلج التقوى صدره لن يندَّ عنه بعد ذلك أبدًا إذا كان مؤمنًا بحق، وقد آمن القوم وثبتوا على الإيمان، فلن يخشوا وعيد فرعون، وإنا لمنقلبون إلى ربنا ورحمته وعفوه وثوابه. ولن نعدل عن الإيمان طلبًا لمرضاة فرعون وابتغاء مكافأته.

بعد أن رأى فرعون معجزة موسى بالعصا واليد، خاف منه أشد الخوف، فخلَّى سبيله ولم يعرض له بسوء، إلا أن أشراف قومه لم يعجبهم تصرف فرعون، فهل يترك موسى وقومه ليفسدوا على الناس أمور دينهم في أرض مصر، ويصرفوهم عن اتباع فرعون وطاعته؟

ولكن فرعون هدد بقتل أبناء من تبع موسى ودخل في دينه، كما هدد بسبي نسائهم وجعلهم أحياء أرقاء لاستخدامهن، كما كان يفعل وقت

ولادة موسى ، فهم تحت أيدينا أذلاء أرقاء مقهورين صاغرين .

لم يكترث سحرة فرعون الذين آمنوا برب موسى وصدقوا رسالته المؤيدة بالمعجزات ، فما فعله موسى ليس سحرًا ، فاصنع بنا يا فرعون ما شئت من بتر الأعضاء وصلب الأجسام ، فعن قريب يزول جبروتك وسلطانك .

ولقد آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اقترفناه من الكفر والمعاصي ، ويغفر لنا السحر الذي ارتكبناه في حق نبيه موسى ومعارضته ، حيث أكرهتنا عليه وجمعتنا من المدن القاصية ، وإيماننا باللّٰه خير لنا وأبقى ثوابًا ، وكفرنا به أدوم عقابًا ، فخيره أفضل من خيرك ، وعذابه أشد من عذابك .

وقال بنو إسرائيل لموسى : لقد أوذينا من قِبل فرعون حتى قبل أن تأتينا بالرسالة ، كان يقتل الأبناء منا قبل مولدك خوفًا من مجيء ولد ذكر ينحّيه عن الملك ، وأوذينا من بعد أن جئتنا حيث يتوعدنا بقتل الأبناء واستخدام النساء .

طمأن موسى قومه بعدما شاهد عليهم أمارات الجزع ، فقال لهم إن اللّٰه وعد بإهلاك فرعون وشيعته من المستبدين الكافرين ، وأوجب على نفسه ما وعد به .

لكن فرعون وقومه بعد ما رأوا من شأن العصا واليد . قالوا لموسى : مهما تظهر لنا من كرامات ، ومهما تحضر لنا من معجزات ، ومهما تأت به من آيات لتسحرنا بها وتخلب أنظارنا بخداعنا ، فما نحن بمصدقين لك أو مؤمنين بنبوتك .

* * *

□ الرجل المؤمن □

دعا موسى على فرعون وملئه دعاء مستطيرًا : يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وعتا بين القوم ، وإن قومه نقضوا عهدك وخذلوا نبيك ، فانقم عليهم بعقوبتك ، واجعل منهم عبرة لمن يأتي بعدهم .

استجاب اللّه لدعاء صفيه موسى عليه السلام فأرسل على قوم فرعون الطوفان فطاف الماء بهم وغشيهم وملأ أراضيهم بالمطر والسيول .

وأرسل عليهم الجراد البري ذا اللون الأصفر من ذكوره والأسود من إناثه ، وليس في الحيوان ما هو أكثر إفسادًا في الأرض من الجراد حيث يهلك كل زرع يصادفه دون أن يبقي منه شيئًا ، أو يذر فيه ثمرة .

وسلط عليهم القمّل وهو السوس الذي يخرج من الحنطة ، فيأكل السنبلة وهي غضة فيطول الزرع ولا سنبلة له ، ولم يذر منها عودًا أخضر ، ولحس جميع ما في أراضيهم مما خلفه الجراد .

وفي رواية : سلط عليهم القمْل بسكون الميم ، وهي الحشرة المعروفة بين الناس وتقع في بدن الإنسان وثوبه ، فيدخل بين ثيابهم ، ويمص جلودهم ، ويزيل شعورهم وحواجبهم وأشفار عيونهم حتى ظهر فيهم وباء الجدري .

وبعث إليهم الضفادع وهي حيوان لا عظم لها .

يقول ابن سينا : إذا كثرت الضفادع في سنة وزادت على العادة كان ذلك نذيرًا بحلول الوباء عقيبه .

وأنزل عليهم الدم أمطارًا ، ينهمر لمدة ثمانية أيام في ظلمات كثيفة ، لا يستطيع الواحد أن يغادر داره بسبب كثافة الظلمات .

ودخل الماء بيوتهم فانقلب دمًا حتى عمَّ أجسادهم وبلغ أعناقهم .

ومن حكمة اللّه وحدبه على بني إسرائيل وكرامة نبيهم موسى عليه السلام أن بيوتهم لم تغمرها قطرة ماء مع أنها كانت مختلطة ببيوت القبط حيث فاض الماء على أرضهم وغمر بيوتهم حتى منعهم من الحرث والزرع ، وحتى صارت مياههم وآبارهم وأنهارهم دمًا أحمر قانيًا .

أما فرعون فقد ألمّ به العطش وأجهده الظمأ وصار يطلب الريَّ ، فكانوا يأتونه بأوراق الشجر الندية الرطبة فيمصها فتصير دمًا .

كان قوم فرعون لا يأكلون ولا يشربون سوى الدم ، حتى زلزلت أقدام فرعون وتراجع عن عناده ، وسأل موسى لئن كشف إلهه عنه هذا الدم ليؤمنن به .

فالمحن والشدائد عندما تصيب المرء يتنبه ويعتبر ويرجع عن غيه وكفره وعناده ، ويصبح ضعيفًا يدعو ربه لئن أنجاه مما هو فيه من محن ليكونن شاكرًا مطيعًا لربه .

فإذا نجاه اللّه بغى في الأرض وتجبر وعاد إلى ما كان فيه من ضلال وعناد وكفر؛ بل ربما صار أشد شكيمة مما كان .

وهكذا كان شأن فرعون وقومه ، حين شق عليهم العذاب من القحط ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع ، طلبوا من موسى أن يسأل ربه أن يكشف عنهم العذاب ، وأن يدفع عنهم البلايا ويقيهم شر المحن ، فإذا فعل اللّه بهم ووقاهم سوء العذاب ، لآمنوا به ، وأطلقوا أسر بني إسرائيل ، وخلوا شأنهم وتركوهم يذهبون إلى موطن آبائهم .

* * *

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك

بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ [الأعراف : ١٣٣، ١٣٤] .

* * *

وقد استجاب اللّٰه لدعائهم وسؤالهم موسى حبيب اللّٰه أن يكشف عنهم العذاب ، فلما كشف اللّٰه عنهم العذاب إلى وقت معلوم وهو آت لا محالة ، أسرعوا في نكث عهودهم وخلف وعودهم دون أن يتأملوا فداحة هذا الموقف الكريه ، فازدادوا في عتوهم وفسادهم ، وأوغلوا في بطشهم وعنادهم ، وسمع موسى تهديد فرعون له بالقتل ، فاستعاذ بربه أن يصونه من كل بلية يتمنى فرعون أن تلحق به .

قيض اللّٰه لموسى رجلًا مؤمنًا من آل فرعون ، إلا أنه يكتم إيمانه عن القوم حتى لا ينكلوا به ويتعسفوا معه ، دافع عنه هذا الرجل الأجنبي دفاعًا حارًّا وبقلب خالص من الموجدة والأذى .

هذا الرجل وصفه اللّٰه بعدة أوصاف .

فهو رجل مؤمن ، وأنه من آل فرعون ، وأنه يكتم إيمانه عن القوم **﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلًا أن يقول ربي اللّٰه وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبًا فعليه كذبه وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذي يعدكم﴾** [غافر: ٢٨] .

وقدم من هذا الصفات صفة الإيمان ، فهو رجل مؤمن ، لأن الإيمان أشرف الأوصاف ، وثنى بأنه من آل فرعون ، لأنه لو أخر هذه الصفة ، عن قوله : **﴿يكتم إيمانه﴾** لما فهم أن الرجل من آل فرعون ، وكان اسمه شمعان من أقارب فرعون ، وهو ابن عمه .

وكان هذا الرجل يستر إيمانه عن فرعون ويخفيه عن قومه ، ليس خوفًا ،

ولكن رجاء أن يكون كلامه موضع قبول ورضا .

قال الرجل مستنكرًا : أتقتلون رجلًا ظلمًا لا لشيء إلا أنه يقول ﴿ربي الله﴾ وحده لا شريك له ، وقد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي رأيتموها ، جاءكم بها من قبل ربكم ، من رب الخلق أجمعين ، وما يكون من رب الخلق أجمعين ينبغي أن يتبع وأن يطاع . وإن كان موسى كاذبًا فعليه كذبه لا يتجاوزه إلى غيره فلا يحتاج إلى دفعه بالقتل ، وإن يك صادقًا في قوله فكذبتموه وأسأتم إليه أصابكم ما أوعدكم به من العذاب ، وإن أصابكم قليل من العذاب دون كثيره ، ففي ذلك هلاك ودمار لكم جميعًا .

ويردد لهم هذا الرجل المؤمن النداء المرة تلو المرة حفيًا بهم شفوقًا عليهم : إذا كان لكم الملك والسلطان والغلبة على بني إسرائيل اليوم في أرض مصر ، ولا يستطيع أحد أن يقاومكم ، فسوف تتعرضون غدًا لبأس اللَّه وعذابه ، ولن ينصركم أحدٌ من بأس اللَّه إن جاءكم .

ولكن فرعون مصمم على قتل موسى مصرٌّ عليه ، دفعًا للفتنة التي يجلبها عليهم موسى إن ظلَّ حيًا ، وكان هذا الرأي هو الصواب لديه ، الأثير عنده .

كان فرعون يحاول أن يبدو مطمئنًا أمام قومه ، إلا أن قلبه يستشعر الخوف الشديد ، وإلا فما معنى أن يستشير قومه في أمر موسى ، ويطلب منهم الرأي والمشورة ؟

غير أن الرجل ابتدر قوم فرعون يحذرهم وينبههم ويعظهم بأنهم إن كذبوا موسى أو تعرضوا له بالأذى أو القتل أن يحدث لكم ما حدث لأسلافكم وأن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح لأنهم كذبوه ، ومثل ما أصاب عادًا حين كذبوا هودًا ، وثمود حين آذوا صالحًا وكذبوه ، وكذا حال من جاء بعدهم من الأمم في تكذيب المرسلين .

ثم ناداهم الرجل المؤمن مرة أخرى متوسلًا مستعطفًا بأنه يخاف عليهم

عذاب يوم القيامة، وهو يوم ينادي فيه بعضهم بعضًا يطلب الغوث والعون، وكل منهم يبغي أن يشفع له عند قريبه أو أخيه أو صديقه ولكن لا سميع ولا مجيب، فالجميع منصرف عمن يستغيث به، منصرف عنه إلى النار، موليًا ظهره مقبلًا على عذاب السعير، فلن يعصمكم من عقوبة اللّه أحد، ومن يضله اللّه فليس له أحد يهديه إلى طريق النجاة.

طلب منهم الرجل المؤمن أن يتبعوا سبيل الرشاد ولا يستسلموا لطريق الغي، فالدنيا متاعها قليل زائل، وهي بأسرها مجرد ساعة من أيام اللّه وهي لا تتعدى غمضة عين أو رجفة جفن، أما الآخرة فهي دار قرار ودوام، والدائم خير من المنقضي: ومن يقترف سيئة يجزى سيئة، ومن يعمل عملًا صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فسيدخل الجنة مزودًا بمتعها وأطايبها.

وجاء رجل آخر مؤمن صالح غير الرجل الأول اسمه خربيل ويتعجب الرجل المؤمن الصالح، يتعجب لموقف فرعون وشيعته من موسى عليه السلام ويوبخهم أعنف توبيخ، فكيف يدعوهم إلى الجنة، وإلى النجاة من النار، يدعوهم إلى التوحيد، بينما هم يدعونه إلى الشر الذي يؤدي إلى الجحيم.

ولكن قوم فرعون لم يصيخوا السمع للرجل الصالح، ولم ينصتوا إلى دعوة موسى لهم بالتوحيد، ومكروا به وأرادوا أن يلحقوا بموسى ومن اتبعه العنت والأذى فمكر اللّه بهم واستدرجهم إلى الغرق في ماء كأنه الجحيم.

* * *

□ غرق فرعون □

خشي فرعون على قومه أن يدخلوا في الإيمان برب موسى واتباعه ، فنادى فيهم فرعون أليس لي ملك مصر على طول النيل من شمالها إلى جنوبها في أقصى الصعيد ؟

انظروا إلى هذه الأنهار ، وهذه الخلجان الكبيرة الخارجة عن النيل وأعظمها أربعة أنهر : نهر الاسكندرية ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنِّيس بالقرب من دمياط .

أليست هذه الأنهار تجري من تحت قصري ، تحت أمري ورهن تصرفي ، أفلا تبصرونها بأعينكم وتعبرونها بسفنكم وقواربكم؟ يريد بذلك أن يعظم من شأن نفسه ، وألا أحد يربو إلى مكانته ، لا موسى ولا إله موسى ، فهو خير من ذلك الرجل الضعيف الذي لا يكاد يبين ، وهو الذي لا يصلح للنبوة ولا للرسالة ، فليس لديه ما يتقوى به من الملك والسلطان ، أراد بذلك أن ينقص من قدر موسى في أعين الناس ، ومن كان ضعيفًا لا سلطان له لن تهبط عليه الرسالة ، وإن كان صادقًا في رسالته كما يزعم فهلا أعطي مقاليد الملك ، فيكون حاله عندئذ خيرًا من حال فرعون .

* * *

﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾

[الزخرف : ٥٣] .

* * *

وكان من عادتهم إذا سوَّدوا عليهم رجلًا طوَّقوه بطوق من ذهب دليلًا

على رئاسته وسيادته .

وَلِمَ - إذًا - لَمْ تنضم إليه الملائكة لتعينه في نبوته ، وتنصره في رسالته وتشهد بصدقه ودعوته ؟

وهكذا استنفر فرعون قومه بزخرف القول حتى يطيعوه فيما أراد منهم من الامتثال لأمره ، ولجهلهم وضلالهم سارعوا إلى طاعة فرعون ، ولكن فرعون وقومه لم يسلموا من كيد اللّه ، وجعل منهم مثلًا يسير بين الناس ويتحاكى به في الأسفار .

كانت خطة إلهية محكمة في تدبيرها وتنفيذها . فقد كان فرعون يتباهى بهذه الأنهار التي تجري تحت قصره ، فأراد اللّه له أن يغرق فيها وتطفو جثته فوق مياهها ، فيصبح ما يفخر به سببًا في هلاكه ومكانًا لغرقه .

أراد موسى ومن تبعه أن يفروا من العذاب الذي ينتظرهم على يد فرعون ، فلم يكن لهم مفر من اجتياز بحر القُلْزُم [١] - فأوحى اللّه إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه ، فانشق ماؤه ، وصار في البحر اثنا عشر طريقًا ، يفرق بين كل منها موج عال كالجبل الشاهق الممتد نحو السماء الثابت في مقره ، فدخل قوم موسى بين شعاب الأمواج ، كل سبط في شعب منها ، وكل جماعة في درب من دروبها ، وتحول طريقهم في الماء إلى أرض يابسة .

جاءت الأنباء بمحاولة هروب موسى وقومه من بطش فرعون ، فأتبعهم فرعون بجنوده ، وتعقبوا موسى ، وجدُّوا في أثره ، واتبعوا الطريق الذي سلكه موسى ومن معه ، فتحول اليبس إلى ما كان عليه من ماء ، وصار بحرًا هادر الأمواج مرتفعًا شاهقًا كالطود العظيم ، كطوفان نُوح عليه السلام .

طغت أمواج البحر على فرعون ومن معه ، ولم يستطيعوا مقاومة عنفها وصخبها ، فهبطوا جميعًا إلى القاع ، ولفظوا أنفاسهم الأخيرة ، إلا أن فرعون

(١) بحر القلزم هو ما يسمى الآن بالبحر الأحمر .

قبل أن يفارق الحياة ويلفظ النفس الأخير لم يقل «آمنت بالله الذي لا إله إلا هو، وجعلت نفسي خالصة لك» وإنما قال على سبيل التقليد ﴿**قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين**﴾ [يونس: ٩٠] ولذا لم يقبل الله منه إيمانًا؛ لأنه لم يكن إيمانًا خالصًا، وإنما أراد أن يخرج من هذا المأزق الصعب بأن أظهر إيمانه حين يئس من الحياة وأيقن الممات، وقد وصفه القرآن بأنه كان من العاصين المفسدين الضالين، ولذا جعل منه عبرة لكل عاصٍ جبار، فننجيك ببدنك، وننتشلك من قاع البحر، ونجعلك طافيًا على سطحه، بينما استقر أتباعه في قاعه، فيظهر جسدك على السطح دون ملامسة الروح له، ويكون ظاهرًا للمشاهد جثة بلا روح ليراك بنو إسرائيل ويتحققوا من هلاكك. وقد خيل إليهم لفرط عظمتك أنك لن تهلك، فكذبوا موسى حين أخبرهم بهلاكك ولم يصدقوا إلا بعد أن رأوا جثة فرعون طافية على سطح البحر.

فكان غرق فرعون الذي ادعى الألوهية والخلود الذي لا يعتريه الفناء أعجوبة لبني إسرائيل: ﴿**فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية**﴾ [يونس: ٩٢] ولم يرد اختيارًا أن يسلم روحه لبارئها، فأسلمها لخضم الأمواج الكاسحة قسرًا واعتبارًا.

انتقمنا من فرعون وملئه بالإغراق في البحر الهادر العميق الذي لا يدرك منتهاه؛ لأنهم كذبوا بآياتنا ومعجزاتنا التي أظهرناها على يد موسى عليه السلام، وإعراضهم عنها وعدم تفكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها كلية، ولما بدر منهم من المعاصي وما أسلفوا من الجرائم، وأوقعناهم في الذل والخسران، فخربنا ديارهم ودمرنا قصورهم وأهلكنا زرعهم وحدائقهم، وما كانوا يتنعمون به ويستظلون من تعريش الكروم.

وبعد أن نجينا بني إسرائيل وأهلكنا فرعون وقومه أنزلناهم مكانًا حسنًا يتمتعون فيه بكثير من اللذة الحسية والمتعة المعنوية.

□ موسى الكليم □

اجتاز بنو إسرائيل البحر الأحمر سالمين من كيد فرعون بعد أن أغرقه اللّه في قاع البحر الهادر، وكان يسمى: بحر القُلزُم، اجتازوه بصحبة موسى عليه السلام، فمروا على قومٍ يعكفون على أصنام لهم، يعبدونها ويواظبون على عبادتها ويلازمونها تقربًا منها واحتفاء بشأنها.

رأى أتباع موسى هؤلاء الناس يعبدون أصنامًا من البقر، يجلُّونها ويقدسونها، فقالوا لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، نعبده ونسجد له.

وبخهم موسى على هذه المقولة الشنعاء، فهم يريدون أن يشركوا باللّه ما هو من صنعهم، فقد جهلوا دينهم وشرائعه، ولا يدركون معنى الألوهية وفحوى العبادة، خاصة بعد أن شاهدوا الآيات التي أيد اللّه بها نبيه موسى.

أجل لقد قصدوا من عبادة هذه التماثيل شأن ما رأوا من الناس أن يتقربوا إلى اللّه سبحانه، فنهاهم موسى عن هذه العبادة، واستنكر عليهم أن يطلبوا إلهًا غيرْ اللّه الذي فضلهم على العالمين من أهل زمانهم، إلا أنهم قصدوا إلى أخس شيء من مخلوقاته وجعلوه إلهًا لهم.

ذكَّرهم موسى بنعم اللّه عليهم، فقد أنجاكم من الغرق، وخلَّصكم من آل فرعون وبطشهم حين أهلكهم كلية، وقد كانوا يسومونكم سوء العذاب بقتل الأبناء، واستحياء النساء، ورأيتم على أيديهم أهوال العنف والمذلة، وكانوا يحيطونكم بالمحن الشاقة والبلاء العظيم، فاعترفوا بنعم اللّه عليكم ولا تجحدوها، ولا تشركوا به شيئًا.

اغتم موسى لما رأى من قومه وشغفهم أن يتخذوا إلهًا يعبدونه غير اللّه، كما رأوا عند قوم من المصريين، فسأل ربه أن يوحي إليه وأن يكلمه، فأمره بصوم ثلاثين يومًا، فصام ذا القعدة بتمامه حتى يكرمه اللّه ويتم عليه نعمته بالنبوة، فلما صام هذه المدة كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم،

فاستعمل السواك ، وتناول شيئًا من نبات الأرض فمضغه .

أوحى اللَّه إلى موسى : أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ، وأمره أن يزيد في صيامه عشرة أيام من ذي الحجة ليعود فمه إلى ما كان عليه من طيب الرائحة ، فصام وتشرف بالوحي ، وكلام ربه يوم النحر .

قبل أن ينطلق موسى إلى الجبل الذي أمر بالعبادة فيه ، قال لأخيه هارون : كن خليفتي في قومي ، وراقبهم فيما يأتون ويذرون ، وأصلح من أمورهم ما يفتقر إلى الإصلاح ، وكن قدوة لهم في السيرة الطيبة والعمل الصالح ، وثبتهم على ما أخلفتهم عليه من الإيمان والإخلاص في العبادة ، ولا تتبع من يسألك الإفساد ، ولا تطع من يدعوك إليه ؛ لأن موسى كان يشاهد كثرة خلافاتهم حالًا بعد حال ، فأوصاه في أمرهم خيرًا .

وحان الوقت الذي حدده اللَّه بعد صيامه أربعين يومًا ، فكلمه ربه من غير واسطة ، ولا كيفية (*) ، كلَّمه مباشرة وليس عن طريق الوحي ، كلَّمه كما يكلم سائر الملائكة ، وعلى الرغم أن جبريل كان رفيق موسى إلا أنه لم يسمع ما دار بين اللَّه وبين موسى من حوار ، ولذا خص موسى باسم « الكليم » دون البشر قاطبة ، حتى الأنبياء فقد كلمهم اللَّه بواسطة جبريل .

سمع موسى نداء ربه من الجوانب الستة ، من جميع الأنحاء ومن كل اتجاه ، من أسفله وأعلاه ، وعن يمينه وشماله ، ومن أمامه وخلفه ، حتى صارت جميع جوارحه تسمعه ، كل عضو في جسده أذن صاغية ، وصار الوجود كله سمعًا ، ووجد لذة الكلام بحواسه كما وجدها بسمعه .

قال موسى : أي ربي إني مشتاق لرؤيتك فمكني منها ، أود أن أرى ذاتك المقدسة ، وأشعر بأنوارك المتوهجة التي تعم الكون بأسره ، أحب أن أراك بناظريَّ حتى يداخلني شعاع من نور ضيائك الوهاج .

قال اللَّه الشفيق لموسى المشتاق : لا تطلب النظر إليَّ ، فأنت لا تطيقه ، ولكني سأجعل ما بينك وبيني ما هو أقوى وأشد رسوخًا منك ، انظر إلى هذا

(*) أي : كيفية معلومة لدينا . (مصحح دار الحرمين) .

الجبل الذي يواجهك ، وتوسم فيه تراه يشق بهامته السحاب ، إذا استقر هذا الجبل وثبت على حاله فسوف تطيق أن تنظر إليَّ ، وإن لم يستقر في مكانه فلن أتجلى لك ، ولن تراني .

وفي رعشة جفن اندك الجبل وصار فُتاتًا ، وتلاشى مع صلابته ، أصبح أثرًا بعد عين ، ولم يعد له وجود ، فكيف تطيق يا موسى مع ضعفك أن تشاهد ربك ذا العظمة والجلال !!

لما ظهرت عظمة اللّٰه للجبل ، وأودع اللّٰه قدرته في الكائنات كلها بما فيها الجماد ، تفتت الجبل وسوي بالتراب ، ولم يعد فارهًا يطل بهامته المديدة نحو السحاب ، وحل به ما حل من الانهيار ، فما ظنك يا موسى بابن آدم الضعيف ..

جعل اللّٰه الجبل فداء لموسى عليه السلام ، ولولا أن موسى كان مدهوشًا لذاب كما ذاب الجبل واختفى كما يختفي النجم وراء السحاب .

يقول المفسرون : في هذه اللحظة التي لا تتكرر ، عذُب إذ ذاك كل ماء ، وأفاق كل مجنون ، وبرئ كل مريض ، وزال الشوك عن الأشجار ، واخضرت الأرض ، وأزهر النبات ، وخمدت نيران المجوس ، وتهاوت الأصنام ، وانقطعت أصوات الملائكة ، واضطرب الجبل من تحت أقدام موسى حتى اندك كله فصار ذرات تطير في الهواء .

رأى موسى كل شيء حوله قد تغير وتبدل ، وصار على صورة غير التي كان عليها من قبل ، فسقط مغشيًا عليه من هول ما رأى .

لما أفاق من صعقته ، ومثلت إليه حواسه ، وعاد إلى يقظته قال تعظيمًا لما شاهده متضرعًا إلى اللّٰه أن يعفو عنه ما بدر منه من جرأة واشتياق ، وشعر بتنزيه اللّٰه عن كل صغيرة : إني تبت إليك من جرأتي وإقدامي على السؤال دون إذن منك ، فأنا أول المؤمنين بعظمتك ، وأول المسبحين بجلالك ، وأول من آمن بأنك لا تُرى في الدنيا .

قال الله لنبيه موسى : لقد منعتك رؤيتي ، لإصلاح حالك وبقاء ذاتك ، فلا تكن مهمومًا ولا مغمومًا ، ولذا اخترتك وآثرتك على الناس جميعًا بالكلام إليك ، ومن أجل ذلك سمي بـ « الكليم » .

* * *

□ النبوة □

﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

لم يكن يصدق أن اللّه قد حباه بهذه المنزلة الرفيعة واصطفاه دون الخلق بالرسالة والتوراة ، لم يكن هذا حديث وهم أو خيال ، وإنما هو كلام من اللّه عز وجل لنبيه موسىٰ المختار .

اصطفاه على الناس دون الخلق ؛ لأن الملائكة يسمعون كلام اللّه من غير واسطة كما سمعه موسى عليه السلام .

فخذ ما آتيتك من شرف النبوة ، ومنزلة الحكمة ، وكن من الشاكرين على هذه النعم التي أسديتها إليك .

أنزل اللّه على نبيه موسى التوراة في تسعة ألواح من الزمرد الأخضر ، تضم ما يحتاج إليه البشر من مواعظ نافعة وأحكام مفصلة ، وقد كتب في الألواح :

إني أنا اللّه الرحمن الرحيم .

ولا تشركوا بي شيئًا .

ولا تقطعوا السبيل .

ولا تزنوا .

ولا تعقوا الوالدين .

وقال له خذ هذه الألواح بجد وعزم ، وأمر قومك أن يضعوها نصب أعينهم ، يعملون بما فيها ، وأن يأخذوا بأحسنها ، وكلها غاية في الحسن والنفع ، فلا تتركوا منها شيئًا دون تنفيذ ، وعليك أن تحث قومك على الالتزام بأن يعملوا بمقتضاها ، وسأريكم يا بني إسرائيل دور فرعون الفارهة ، وقصور

أتباعه المنيفة ، وقد صارت خاوية على عروشها ، وسترون منازل عاد وثمود وأضرابهم ، وقد تهالكت ونعق فيها الخراب حتى تعتبروا ولا تفسقوا بمخالفة ما أمرتم به من العمل بأحكام التوراة وشرائعها .

أما الكافرون بتعاليمي فسأطبع على قلوبهم ؛ لأنهم يرون الفضل والمزية لهم دون غيرهم ، فلا ينتفعون بآياتي ولا يعتبرون بشرائعي لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والخيلاء ، فلا تسلكوا يا بني إسرائيل مسلكهم فتكونوا أمثالهم في الغي والفساد والإفساد ، فهم على دين باطل ، وظلم مفرط ، وإذا رأوا آية من الآيات كفروا بها لعدم تفكرهم فيها وتدبرهم لها ، وأوصدوا قلوبهم دونها ، وإذا رأوا سبيل الرشاد والهداية لا يتجهون نحوه ؛ لأنهم طبعوا على الانحراف والزيغ ، ولكن إذا رأوا سبيل الغي والفساد اختاروه لأنفسهم طريقًا سائغًا ، لا يكادون يعدلون عنه ؛ لأنه يوافق أهواءهم الباطلة ، ويساير نزعاتهم المنحرفة .

هؤلاء المكذبون للآيات والرسل في الدنيا والبعث والحساب في الآخرة حبطت أعمالهم وحبطت درجاتهم ، فليس لهم جزاء إلا ما يستحقون من عقاب وعذاب .

* * *

□ عبادة العجل □

ترك موسى قومه في معيَّة أخيه هارون ، ليشرف على شئونهم ، ويطلع على أحوالهم ، ويقضي على حيرتهم وتساؤلاتهم إن عنَّ لهم شيء ، وأن يرسخ الإيمان بالله وما حباهم به من نعم .

ذهب موسى إلى الطور ، إلا أن قومه اتخذوا من حليهم وذهبهم وفضتهم التي استعاروها من أربابها القبط حين هموا بالخروج من مصر ، وأذابوا كل ما كان معهم من حليٍّ ، واتخذوا منه عجلًا وصيروه إلهًا يعبدونه ، وسُمي ولد

البقر عجلًا ؛ لأن بني إسرائيل استعجلت عبادته .

* * *

﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خُوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

* * *

عبدوا العجل أربعين يومًا ، فعوقبوا بالتيه أربعين سنة ، وجعل اللّٰه كل سنة من التيه في مقابلة يوم واحد من عبادة العجل .

صاغ قوم موسى العجل من الحلي ، كان جثة بلا روح ، ولكن له صوت البقر ، وكان له خوار ؛ لأنه مجوف من الداخل ، وجعلوا بداخله أنابيب على شكل معين ، واتخذوا من هذا التمثال وضعًا في مهب الريح ، فكانت الريح تدخل في تلك الأنابيب ، فظهر منه صوت يشبه خوار العجل ، فأوهم السامري القوم من بني إسرائيل أنه حي يخور ، فاستعذبوا ذلك وقدروه ، ورفضوا من حوله .

ذلك أن موسى قد وعد قومه بالانطلاق إلى جبل الطور يمكث عنده ثلاثين يومًا ، فلما تأخر رجوعه ، قال لهم السامري - وكان مطاعًا في قومه -: إنكم اتخذتم الحليَّ من آل فرعون فعاقبكم اللّٰه بتلك الجناية ومنع موسى عنكم ، فاجمعوا الحلي حتى أحرقها لعل اللّٰه يرده إلينا .

ألقى السامري الحلي في النار بعد أن جمعها القوم ، وكان صائغًا ، فصاغ لهم هذا العجل من الذهب ، فعبد العجل قوم كثيرون ، كانوا يرقصون حوله في وجْد وشوق ، وامتلأت نفوسهم بعبادة العجل ودين الكفر ، وابتعدت عن الإيمان باللّٰه ، وشكر نعمه .

والعجل في كل الأوقات لم يكن يقدر أن يحادثهم ، لا بأمر ولا نهي ، ولا يرشدهم إلى خير ليأتوه ، ولا يثنيهم عن شر ليجتنبوه ، ولكنهم اتخذوا

من العجل إلهًا ، واعتقدوا أنه الخالق لكل القوى ، والمدبر لمقادير الخلق ، وبيده مفتاح الخير والشر ، فظلموا أنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير موضعها ، ولم يعطوا الأشياء قدرها السليم ، وإنما اتبعوا أهواءهم وانقادوا إلى خديعة السامري .

ولكن بعضًا منهم راجع نفسه فندم غاية الندم على ما فعل من عبادة العجل ، حتى إنهم عضوا أناملهم من شدة التحسر ، وقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويتجاوز عن سيئاتنا ويمحو خطايانا ، لنكونن من الذين أصيبوا بالخيبة والخسران .

* * *

﴿ولما سُقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ [الأعراف : ١٤٩].

* * *

حدث منهم هذا الندم والتحسر بعد عودة موسى إليهم ، وعندما علم بما اقترفوا من جناية وخطيئة لا يمحوها اللّه ولا يغفرها ، غضب أشد الغضب ، وقد أعلمه اللّه بارتكاب قومه هذه الفعلة الشنعاء حين كلّمه في البقعة المباركة .

ساء عمل القوم بعد غيبة موسى وانطلاقه إلى الجبل ، وتعجلوا في اتخاذهم العجل إلهًا ، لم ينتظروا قدوم موسى ، ولم يحفظوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم بالتزامهم بعبادة اللّه ، ولم يعتبروا بما أوصاهم به موسى من الطاعة والإيمان حتى يرجع إليهم .

استنكر موسى من قومه ما تعجلوا به من عبادة العجل وترك عبادة اللّه ، وألقى ما معه من الألواح التي تتضمن التوراة ، واشتد على أخيه هارون غضبًا ، وأخذ بشعر رأسه وهو يجره جرًّا عنيفًا .

كان هارون يكبر أخاه موسى بثلاث سنوات ، إلا أنه كان لينًا هادئ النفس ، ليست فيه ثورة أخيه موسى ولا شدته ، وكان محبوبًا عند بني إسْرائيل لدماثة خلقه وحلو صفاته .

ترفق هارون مع أخيه موسى وناداه بما يزيده تقربًا إليه وحدبًا عليه : يا بن أمي - حتى يحمله على الرفق والشفقة - إن القوم استهانوا بي ، واستضعفوني ، وكادوا يقتلونني ، رغم أني بذلت غاية وسعي حتى أكفهم عن عبادة العجل ، إلا أنهم قهروني وأوشكوا أن يقتلوني ، فلا تعاملني بكل هذه الغلظة حتى لا يشمتوا بي ، فشماتة الأعداء أشد بلاءً وأكثر إيلامًا من كل أذى وتحقير . والموت دون شماتة الأعداء . ولا تؤاخذني ، فأنا لم أتوانَ في كفهم عن عبادة العجل ، ولم أقصر في ذلك أبدًا .

تأثر موسى بكلام أخيه هارون الرقيق الحزين ، وراجع نفسه فيما قال ، وسأل اللَّه أن يغفر له ويغفر لأخيه إن كان قد قصَّر في كفهم عن عبادة العجل .

سأل اللَّه أن يغفر له ؛ لأنه أخذ برأس أخيه دون جريرة ارتكبها ، فهو لم يخذل أخاه في حث القوم على عبادة اللَّه ، وإثنائهم عن عبادة العجلَ . كما سأل اللَّه أن يغفر لأخيه حيث كان ينبغي أن يقاتلهم دون ذلك ، وأن ينعم عليه وعلى أخيه بعد أن يغفر لهم ، فاللَّه أرحم بعباده منا على أنفسنا ، وأرحم علينا من آبائنا وأمهاتنا وأقربائنا .

* * *

﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ [الأعراف : ١٥١] .

* * *

أما الذين اتخذوا من العجل إلها ، واستمروا على عبادته كالسامري

وأشياعه الذين أشربوا في قلوبهم حب العجل سينالهم غضب شديد من اللّه ؛ لأن جريمتهم أعظم الجرائم وأقبح الجرائر ، وسينالون في الدنيا المذلة والهوان ، والاغتراب والمسكنة لهم ولأولادهم .

فالسامري ابتلي بالعزلة عن الناس ونفرتهم منه ، حتى إنهم لم يقتربوا منه ولم يمسوه ؛ إذ حلت عليه لعنة اللّه ، وأراد موسى أن يقتله ، ولكن اللّه أوحى إليه أن يتركه منبوذًا مطرودًا ، وإذا لمس أحدًا أو مسه أحد أصيب الاثنان بالحمى ؛ لأنه افترى على اللّه حين حث قوم موسى على عبادة العجل ، وليس ثمة فرية أشد من فريته على اللّه واتخاذ العجل إلهًا بديلًا عن رب السموات والأرض والكون بأسره .

* * *

﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدًا لن تُخْلَفه وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفًا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفًا﴾ [طه : ٩٧] .

* * *

أما الذين أغراهم السامري وأغواهم بعبادة العجل ثم تابوا من بعد ذلك وآمنوا إيمانًا خالصًا صحيحًا ، فقد غفر اللّه لهم بعد توبتهم ، فاللّه غفور للذنوب وإن عظمت ، ويفيض بالرحمة على خلقه في دنياهم وآخرتهم ، ويؤكد اللّه على أنه يقبل التوبة من عباده في كثير من مواضع القرآن الكريم تأكيدًا لا مزيد عليه .

« لما سكت عن موسى الغضب » باعتذار أخيه وتوبة قومه ، أخذ الألواح التي ألقاها ، وحين ألقيت لم تتهشم ، كان في طياتها الهداية والرحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سبيل الخير والرشاد ، وذلك للذين يخشون ربهم

ويرهبون غضبه .

اختار موسى من خيار قومه سبعين رجلًا ، ليعتذروا عما بدر من القوم بعبادة العجل ، وكانوا قد عرفوا أن اللّٰه كلم موسى عليه السلام ، فطمعوا في رؤية اللّٰه ، واجترءوا في سؤال موسى أن يريهم اللّٰه جهرة ، فأخذتهم الرجفة والهزة العنيفة فصعقوا وماتوا عن بكرة أبيهم .

لم يفاجأ موسى بموت الرجال ، ولو شاء اللّٰه لأهلكهم قبل أن يفرطوا فيما نُهوا عنه من عبادة العجل ، ويستمروا على دوام عبادته ، ويشاهدوا من أصروا على هذه العبادة .

كان موسى شديد الثقة بربه ، فطمع في لطفه وقال : ﴿**أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاءِ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين**﴾ [الأعراف : ١٥٥] ، لقد تجاسروا على طلب رؤيتك ، ويا رب يا رفيع المقام ويا خفي الألطاف تهلك الجم الغفير بذنب صدر عن بعض السفهاء الذين فتنوا حين علموا أنك قد كلمتني ، فوقعوا في محنة الطمع في رؤيتك ، وضلوا حين اعتقدوا خطأ أن بإمكانهم رؤيتك ، فأنت تضل من تشاء حين يتجاوز عن حدِّه ، وتهدي من تشاء إلى الحق فيقوى إيمانه ، وأنت يا رب وليُّنا القائم على أمورنا في الدنيا والآخرة ، وأنت ناصرنا وحافظنا ، نهتدي بأنوار ذاتك ، ونتبع شعاع وجودك ، فاغفر لنا ما اقترفناه من معصيتك ، وارحمنا بإفاضة آثار رحمتك وعفوك ، فأنت خير من يغفر الذنوب ويضاعف الحسنة ويمحو السيئة .

أخذ موسى عليه السلام يلح في الدعاء والتضرع إلى اللّٰه أن يقبل اعتذاره عن قومه وما صنعوه من المعصية الكبيرة ، وأن يقبل توبة كل من يتوب .

واستمر موسى يدعو ربه دعاء حارًّا حتى استجاب له : إن رحمتي وسعت كل شيء ، وعمت جميع المخلوقات من مؤمن وكافر ، وما من أحد إلا وعليه

آثار نعمتي ورحمتي في الدنيا ، أما رحمتي ونعمتي في الآخرة فلا أخص بها سوى المؤمنين الذين يتقون الكفر والمعاصي ، ويؤدون الزكاة من حر أموالهم التي يعشقون ، ويشق عليهم أن يخرجوا منها شيئًا ، لتعلق القلوب بالمال أكثر من غيره ، ويؤمنون إيمانًا خالصًا بآياتي ورسلي .

وعذابي أصيب به من أشاء دون أن يكون لأحد شأن فيه .

وكان من قوم موسى جماعة تهدي إلى الحق وتدعو إليه ، وتنادي بأن يسير الناس على العدل في الأحكام والأخذ بشريعة اللّٰه والأنبياء .

* * *

□ قارون وموسى □

قارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، وكان مؤمنًا بموسى ، وأقرأ بني إسرائيل للتوراة ، وكان يسمى المنور لجمال صورته وحفظه للتوراة .

واسمه قارون بن يصهب بن قاهث ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث ، فكانا أبناء عمومة واحدة ، ولكن حاله تغير بسبب الغنى والثروة الهائلة ، فامتلأ صلفًا وكبرًا وبغيًا ، وتمرد عن قبول نصيحة النصحاء ، قالوا له لا تبطر بما منحك اللَّه ، وتفخر به على غيرك ، فلا تفرح إن اللَّه لا يحب الفرحين ، إلا أنه ما زال مستخفًّا بالفقراء ، مزدريًا لهم ، مانعًا لحقوقهم .

آتيناه أموالًا جمة ، يضعها في صناديق هائلة متعددة تقدر بأربعمائة ألف صندوق ، يحمل مفاتيحها أربعون رجلًا ، كل رجل يحمل عشرة آلاف مفتاح ينوء بحملها ، تثقل عليهم ، وتميل بهم إذا حملوها لكثرتها وثقلها .

نصحوه ألا يفرح وألا يبطر ، فإن الثروة لذة عاجلة ، والدنيا مباهجها زائلة ، وسألوه أن يبتغي في حال تملكه وقدرته المالية ثواب اللَّه ، وأن ينفق مما أعطاه اللَّه في سبيل مرضاة اللَّه ، أن يواسي الفقراء ، ويصل الأرحام ، ويفك العاني والأسير ، ونحو ذلك مما يبتغي به رضا اللَّه ومحبته ، ولا تنس نصيبك من الحياة الدنيا ، فخذ من أموالك ما يكفيك وأنفق الباقي على مستحقيه ، فإن صرفت همك إلى ثواب الآخرة فذلك خير وأبقى ، وأحسنْ كما أحسن اللَّه إليك ، أحسن إلى الناس ولا تسئ إليهم ولا تفسد فيهم ، فيسلبك اللَّه ما وهبك .

* * *

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه

لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ [القصص: ٧٦].

قال قارون مجيبًا للناصحين مستهينًا بما ينصحون: لقد أوتيت هذا المال لكوني مستحقًّا له، فأنا أعلمكم بالتوراة، وأحفظكم لها، ومن كان شأنه كذلك استحق الزيادة في المال والرفعة في الجاه. ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص: ٧٨].

اعتقد قارون ذلك، ونسي أن الله هو الذي أنعم عليه بالمال، ووضع الكنوز بين يديه، لم يكن تحصيله للثروة بسبب سعيه وكدحه، وإنما هو رزق ساقه الله إليه، وكما يعطي الله الصحة لبعض الناس دون بعض، يهب المال والثروة لمن يشاء من الناس دون غيرهم. ومن كان على شاكلة قارون في الادعاء والافتخار والكفران فإنه يهلك بشؤم صنيعه ومعصيته.

ألم يعلم قارون أنا قد أهلكنا من قبله من هو أكثر قوة بالعدد، وأجمع منه مالًا كالنمرود وغيره من الهالكين؟.

ألم يقرأ التوراة ويعلم ما فعل الله بأضرابه من هلاك أهل القرون الغابرة حتى يغتر بما اغتر به، نسي كل ذلك فساء صنيعه، فساءت آخرته.

ولو كان ما يزعم قارون من أن الله أعطاه ما أعطاه؛ لأنه أهل له، وأنه حبيب إليه، أثير عنده، وليس لقومه أن ينصحوه، وليس له أن يأخذ بنصحهم، فيمنح الفقير ويفك الأسير، فهو قوي بماله، عظيم بثروته، ولو كان هذا صحيحًا فلم نعاقب من هو أكثر منه قوة ومالًا وولدًا، إذا ارتكبوا الخطايا، واقترفوا المعاصي؟.

إن قارون أغرى امرأة بغيًّا وأعطاها بعض الأموال لتدعي على موسى بملإٍ من الناس، أنه زنى بها، ففعلت، وأسقط في يده، وارتعد من شدة الخوف، وصلى ركعتين، ثم أقبل عليها يستحلفها عن سبب الادعاء وإظهار براءته أمام الناس، فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه، خر موسى ساجدًا لله شكرًا، ودعا على قارون، فأوحى الله إليه

أن يخسف به وبداره الأرض؛ ليكون عبرة للظالمين المدعين.

خرج قارون على قومه في أبهى زينة، خرج يوم السبت آخر أيام عمره، ممتطيًا بغلة شهباء، عليها القطيفة الأرجوانية، وسرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف تابع، يلبسون كمثل ما يلبس، ويبدون في أجمل زينة وأبهى حلة، متسربلين بالحرير المطعم بالذهب.

كان مشهده بين قومه في هذه الصورة الرائعة المذهلة يدعو إلى الغبطة من المؤمنين الذين يريدون الحياة الدنيا، ويبغون السعة واليسار، متطلعين أن يعطيهم اللّه مثل ما أعطى قارون، ولم يتمنوا أن يعطيهم ما أعطى قارون بعدًا عن الحسد، ونظرة العين السوداء، فقارون ذو حظ عظيم ونصيب كبير من الثروة والجاه، والمنصب والكبرياء.

* * *

﴿**يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم**﴾ [القصص: ٧٩].

* * *

ولكن الذين أوتوا العلم بثواب الآخرة ونعيمها، وأن ثوابها أبقى من متاع الدنيا وزخرفها، وخير من زينة قارون وأبهته وهو يخطر بين قومه يتيه بأتباعه وثروته، قالوا للذين يتمنون حظًّا مثل حظ قارون في الثروة والجاه: إن ثواب الآخرة أبقى مما تمنيتم من عرض الدنيا، واكتفوا بثواب اللّه ونعيمه، فلا يظفر بالجنة إلا الصابرون على الطاعات المبتعدون عن شهوات الدنيا ومتاعها.

﴿**فخسفنا به وبداره الأرض**﴾ [القصص:٨١]، ومحوناه من سطح الأرض وغار في جوفها، وما كان له من أحد ينصره من هذا الخسف، مما يدل على أن قصة قارون قد حدثت قبل خروج بني إسرائيل من مصر، ووقوعهم في صحراء التيه، لأن الدار لا تقع في الصحراء.

لم تستطع أمواله ولا كنوزه أن تحميه من الخسف أو تدفع عنه الهلاك ، وهذه حال من يطعن في أولياء اللّه وأنبيائه بالدعاوى الباطلة والبهتان الكاذب ، لا يبقى له أثر بعد ذلك إلا جعله اللّه عبرة لمن يتعظ .

تنبه الذين تمنوا منزلة قارون وجاهه بالأمس أنهم أخطئوا في تمنياتهم ، وندموا على ذلك ، ولولا أن اللّه أنعم عليهم فلم يعطهم ما تمنوه ، لخسف بهم الأرض كما فعل بقارون وأتباعه .

* * *

□ بقرة بني إسرائيل □

كان رجل من بني إسرائيل كثير المال وافر الثراء، وهو شيخ كبير طاعن في السن، فعمد أحد أبناء أخيه إلى قتله طمعًا في ثرائه، فلما أصبح الناس وجدوه قتيلًا، فجعل ابن أخيه يصرخ ويلطم خده ويتظلم، فاقترح بعضهم الذهاب إلى نبي اللّٰه موسى لعله يدلهم على القاتل، فناشدهم موسى اللّٰه مَنْ يعرف أمر القتيل ومَنْ قتله، فلم يكن عند أحدهم علم بشيء، فسألوا أن يستعين بربه في هذه القضية وأن يضرع له حتى يبين لهم القتلة. فأوحى اللّٰه إليه وأمره أن يذبحوا بقرة. قال: ﴿**إن اللّٰه يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هُزُوًا**﴾ [البقرة: ٦٧].

نسألك عن أمر القتيل فتأمرنا بذبح بقرة. لم تسخر منا وتهزأ بنا؟ قال موسى: إن الاستهزاء بأمور الدين كبيرة، ولست مستهزئًا ولا ساخرًا.

شددوا على أنفسهم وأخذوا في جدال موسى يطرحون عليه أسئلة غريبة مجحفة. سألوه عن سن البقرة وصفتها، وما يتعلق بها.

قال موسى مجيبًا لهم عن أسئلتهم: إنها ليست مسنَّة، وليست فتية، ليست كبيرة ولا صغيرة، وإنما هي عوان وسط بين الكبر والصغر، فافعلوا ما تؤمرون به من ذبح البقرة.

ثم ضيقوا على أنفسهم فسألوه عن لونها، فقال: صفراء فاقع لونها، مشرب بحمرة، تسر الناظرين، وهذا اللون يعجب المبصرين، ويروقهم حسنها وصفاء لونها، تدخل السرور إلى القلوب لتمام خلقتها ولطافة أجزائها.

ثم شددوا على أنفسهم أكثر فأكثر فشدد اللّٰه عليهم، فطرحوا سؤالًا ثالثًا: ﴿**قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا**﴾ [البقرة: ٧٠]،

أهي سائمة طليقة، تروح وتغدو دون أن تكلف بعمل، أم هي مقيدة عاملة تعمل في الأرض وتحمل المتاع وتجر المحراث؟ فالأمر قد اشتبه علينا ولا ندري أي البقر نذبح؟ وإنا إن شاء اللّٰه لمهتدون إلى ذبحها.

قال: إنها بقرة غير مذللة للعمل، فلا هي تقلب الأرض ولا تسقي الزرع، وإنما هي معفاة من العمل، ولونها كلها أصفر حتى قرونها وأظلافها.

عندما أحاطوا بأوصافها وعرفوا دقة هذه الأوصاف، سهل عليهم العثور عليها فذبحوها، وكانوا قبل ذلك بمعزل عن ذبحها.

كانت هذه البقرة كلها لونًا واحدًا وليس فيها لون يخالف الآخر سالمة من العيوب، فلما حددها بهذه الأوصاف وحصرها في هذه النعوت قالوا: الآن جئت بالحق.

فتشوا عن هذه البقرة التي تحمل هذه الأوصاف في كل مكان في أنحاء البلدة، فعثروا عليها ولم يجدوها إلا عند شاب كان بارًّا بأبيه، رفض أن يعطيها لهم، فعرضوا عليه الأموال فأبى إلى أن قدموا له أضعاف وزنها ذهبًا فلم يمتنع عليهم وباعها لهم.

لقد قتلتم يا بني إسرائيل نفسًا زكية شرفها اللّٰه، وقتل النفس حرام، وقد نهى اللّٰه عن إزهاق الروح إلا بالحق، وقد قتلتم عاميل بن شراحيل دون وجه حق فأثمتم، وتخاصمتم في شأنها، وكل منكم يدفع عن نفسه تلك التهمة ويحيلها إلى غيره، واللّٰه مظهر ما تكتمون لا محالة.

قلنا لهم اضربوا الميت ببعض البقرة فيحيى ويدلكم على القاتل، اضربوه بعضوٍ من أعضائها، بفخذها، أو لسانها، أو بعظمها، فضربوه فأحياه اللّٰه.

فقام القتيل من رقدته يشخب دمًا، فسأله نبي اللّٰه موسى: من قتلك؟ قال: قتلني ابن أخي، ثم عاد ميتًا كما كان ابن أخيه الذي كان يصرخ ويلطم وجهه ويتظلم ومثل ذلك الإحياء العجيب يحيي اللّٰه الموتى يوم القيامة، لعلكم تعقلون أن من يحيي نفسًا واحدة قادر على إحياء الناس

جميعًا ، فأطيعوا اللّٰه فيما يأمركم به وينهاكم عنه .

ولقد أنعم اللّٰه عليكم يا بني إسرائيل بكثير من النعم ، وابتلاكم بكثير من المحن ، مما يستوجب لين القلوب ورقتها ، ويبعد قسوة الصدور وغلظتها ، إلا أنكم فعلتم ما كان ينبغي أن تبتعدوا عنه وتتجافوا منه ، وقست قلوبكم حتى إن الموعظة لا تنفذ إليها ولا تؤثر فيها ، وصارت قلوبكم كالحجارة في قسوتها وصلابتها ؛ أو أشد قسوة وصلابة .

لم يشبه قلوبهم بالحديد وهو أكثر صلابة من الحجارة ؛ لأن الحديد يلين بالنار ، ولم يشبهها بالنحاس لأنه يذوب وتضرب منه الأواني ، فكان تشبيه القرآن لقلوب بني إسرائيل بأنها كالحجارة أو أشد تشبيهًا في موضعه لا يصلح التشبيه بغيره .

* * *

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشَّقَّق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية اللّٰه﴾ [البقرة : ٧٤] .

* * *

فقلوب بني إسرائيل أشد قسوة من الحجارة ، والحجارة ألين من قلوبهم ، فالحجارة فيها من الثقوب التي يتدفق منها الماء الغزير ، وإن من الحجارة ما يهبط من أعلى الجبل خشية من اللّٰه وانقيادًا لأوامره ، فهي لا تمتنع عما يريد اللّٰه منها ، وما اللّٰه بغافلٍ عما تعملون ، يتوعدهم على ما هم عليه من قسوة القلوب وغلظة النفوس .

* * *

□ التيـــه □

بعد أن غرق فرعون وأتباعه في البحر، ونجا موسى وقومه بفضل اللّه ومنّته، ساروا سالمين في رعاية اللّه وعنايته، فهو رسوله وحارس دعوته ومبلغ شريعته، فإذا بهم يقعون في صحراء مترامية الأطراف شديدة الأعماق، ضلوا في نواحيها، وتاهوا في رمالها، أصابهم حر شديد، ولقيهم سغب عظيم، واستبد بهم العطش حتى كاد أن يهلكهم، فطلبوا الماء من نبيهم موسى عليه السلام، فهو صاحب الحظوة عند ربه ولعله يستجيب لدعاء نبيه.

أوحى اللّه إليه أن يضرب بعصاه الحجر، وكانت العصا من آس الجنة ينبعث منها النور في الظلام، حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت شعيبًا فأهداها لموسى زوج ابنته.

أوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر، أي حجر تراه، وليس حجرًا معينًا، له خاصية محددة إذا ضرب انبثق منه الماء، وهذا أدل على نبوة موسى.

خرج الماء من الحجر قليلًا قليلًا ثم اتسع، وانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا بعدد أسباط أمته، والسبط في الأصل ولد الولد، وهو من ولد إسحاق كالقبيلة من ولد إسماعيل، وصيرناهم اثنتي عشرة أمة؛ لأنهم تشعبوا من اثني عشر رجلًا من أولاد يعقوب، فأنعم اللّه عليهم بهذا التمييز لتنتظم أحوالهم وتتيسر معيشتهم، بعد أن كانوا متعصبين يدب البغض بينهم، ويمتدُّ اختلافهم.

علم كل سبط منهم عينه الخاصة به، وكان كل سبط يشرب من عين لا يخالطهم فيها غيرهم للعصبية التي كانت بينهم، يسقون منها دوابهم ويقضون بها مآربهم حتى لا يقع بينهم جدل أو مخاصمة.

وأكرمناهم فظللنا عليهم الغمام بحيث جعلناه يلقي ظلاله عليهم حين يسيرون في الصحراء المحرقة، فإذا تقطعت بهم الأنفاس وضاقت الصدور توقفوا من عناء السير، فيسكن الغمام ليقيهم حر الشمس في النهار، ويتحول

إلى عمود من نار يسيرون على ضوئه بالليل.

وأنزلنا عليهم الطل من السماء فيعلق بالأشجار والأحجار فينعقد عسلًا ويجف فيطعمونه شهيًا.

كان المنُّ ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس، لكل فرد صاع أي ما يقرب من ثمانية أرطال عند أهل العراق.

وتبعث ريح الجنوب عليهم السماني فيسقط بين أيديهم فيذبح الرجل منه ما يكفيه، فهي من الطيبات التي أرادها اللّٰه لهم، فكلوا منها ما شئتم، فهي رزق حلال لكم ببركة نبينا موسى عليه السلام.

فكلوا من المن والسلوى واشربوا من ماء العيون المتفجرة، ولا تتمادوا في الفساد، ولا تعثوا في الأرض غيًّا وبغيًا.

ولكنهم ظلموا أنفسهم، وكفروا بتلك النعم الجليلة، وسئموا من أكل المن والسلوى، وقالوا لن نصبر على طعام واحد، والحق أنهما طعامان لا طعام واحد؛ لكنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فيصيران طعامًا واحدًا.

سل ربك يا موسى أن يظهر لنا شيئًا مما تنبت الأرض من خضرواتها وقثائها وفومها أي قمحها وعدسها أو ثومها وبصلها.

تعجب موسى من قومه الذين يريدون أن يتركوا الذي هو خير، إلى ما هو أدنى منه لذة وطعمًا، أن يتركوا المن والسلوى ويجنحوا إلى طلب الثوم والبصل والقثاء. وإن كنتم تريدون هذه الأشياء فاتركوا الصحراء وانزلوا المدينة فإن لكم فيها ما تسألون من بقول الأرض، ولشدة جشعهم وعدم رضاهم بما قدم اللّٰه لهم وأنعم عليهم من العسل والسمان، ضرب اللّٰه عليهم الذلة والفقر، كما تضرب القبة على من تحتها تحيط بهم من كل جهة وباءوا بغضب عظيم من المولى سبحانه، فقطع عنهم الرزق الذي كان ينزل عليهم دون مئونة أو مشقة.

* * *

□ موسى والخَضِر □

لما ظهر موسى مع قومه من بني إسرائيل على مصر بعد هلاك فرعون ، أمره اللّه أن يذكر قومه بإنعام اللّه عليهم ، فخطب خطبة بليغة رقت لها القلوب ، وذرفت منها العيون . فقال واحد من بني إسرائيل موجهًا سؤاله إلى موسى بغتة : يا موسى من أعلم؟ قال : أنا .

لفظ هذه الكلمة دون أناة أو تفكر ، ولم ينسب العلم إلى اللّه تعالى ، فعتب اللّه عليه إذ لم يردَّ العلم إليه ، وأوحى إليه ؛ بل أعلم منك عبد لي هو الخضر تراه عند مجمع البحرين . فسأل موسى ربه : يا رب ، أين أطلبه ، وكيف يتيسر لي الظفر به ، والاجتماع معه ؟

قال الرب : اطلبه على ساحل البحر عند الصخرة ، وخذ حوتًا مملوحًا في مِكتل - زنبيل يصنع من الخوص - يكون زادًا لك ، فحيث فقدت الحوت وغاب عنك فالخضر هناك .

أخذ موسى حوتًا وجعله في مكتل كما أمر ، وقال لفتاه : إذا فقدت الحوت فأخبرني . وكان له فتى هو يوشع بن نون بن إفراييم بن يوسف ، وهو ابن أخت موسى ، وكان من أعز أصدقائه ومن أعظم بني إسرائيل ، وسمي فتاه ، إذ كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه ، ويسمى الخادم والتلميذ فتى ، وإن كان شيخًا كبيرًا .

قال موسى لفتاه : لا أزال أسير ، ولن ألقي عصا الترحال حتى أبلغ مجمع البحرين ، وهو ملتقى بحر فارس والروم من جهة المشرق ، وهو المكان الذي وعد اللّه موسى بلقاء الخضر فيه . فإن لم تبلغ هذا المكان فإني أواصل السير زمنًا طويلًا حتى أجد هذا العالم الذي يسمى الخضر .

أوغل موسى وفتاه يوشع في السير يجوبان الآفاق ، ونسي كل منهما أن

يخبر الآخر بأمر الحوت ، إذ حدث شيء غريب للحوت ، حيي وسقط في البحر واتخذ طريقه في البحر مسلكًا ، أي اتخذ ثقبًا في جوف البحر ليس له منفذ ، - على غير النفق ، الذي يكون له منفذ ، - وانحسر الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم تلتئم .

انطلق موسى وفتاه يوشع بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان الغد شعر موسى بلذعة الجوع ، فتذكر الحوت وقال لفتاه : آتنا غداءنا من الحوت . فواللّه لقد لقينا من سفرنا شدة الجوع والتعب ، فتذكر يوشع الحوت ، وقال لموسى : لقد عجبت مما أصابني حين وصلنا إلى الصخرة ونزلنا بالقرب منها أن أذكر لك أمر الحوت وما شاهدته من أمور عجيبة ، وأعتذر لك بنسياني وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، حيث حيي الحوت ، ودبت فيه الحركة ، فنزل الماء وشق طريقه في البحر .

ولكن كيف يعن ليوشع أن ينسى مثل هذه المعجزة ولا يخبر بها موسى في حينها ؟

وكيف يرى حوتًا ميتًا مملحًا يتحول إلى حوت حيٍّ يسبح في البحر ، كيف يمكن له أن ينسى هذا الأمر الخارق النادر ؟

لا شك أن يوشع كان قد شهد معجزات باهرة على يد موسى كثيرًا ، فلم يبق لهذه المعجزة ، معجزة إحياء الحوت ونزوله البحر هذه الغرابة عند يوشع ، فلو لم يكن شاهد معجزات سابقة لكان لهذه المعجزة وقع عظيم في نفسه فيذكرها دون أن يعتريه النسيان ، أما والأمر كما ذكرنا فالنسيان وارد وجاز أن تحصل منه الغفلة .

أو لعل اللّه أراد بعودة موسى وفتاه إلى المكان الذي حيي به الحوت وجاوزه إلى غيره ، أن يبين له أن طريق العلم الذي يبغيه من الخضر طريق وعر ، على المرء أن يرتاده أكثر من مرة ؛ ليجد فيه المشقة والنصب حتى

يبلغه ، فطريق العلم محفوف بالمتاعب ، وعلى المرء أن يصبر عليه حتى يصل إلى غايته ومطلبه .

ومهما يكن من شيء فقد فرح موسى فرحًا بالغًا بهذا النبأ ، وما ذكره يوشع من أمر الحوت ، فهو بغيته ومطلبه ، فقد كان اشتياقه حارًّا للقاء الخضر عليه السلام . فعادا من الطريق الذي وصلا إليه عائدَين إلى الاتجاه الآخر حتى بلغا الصخرة التي حيي عندها الحوت المملح .

وعند الصخرة التقيا بالخضر ، التقيا بعبد من عباد اللّه ذى شرف ومكانة .

وجده موسى متلفعًا بثوب ، فألقى عليه التحية وعرفه بنفسه ، وأخبره أنه قطع هذه المسافة الطويلة لكي يفيد من علمه ، ويتعلم منه ما لم يكن يعلم .

والخضر اسمه بليا بن مَلْكان ، ويتصل نسبه بسام بن نوح ، وسمي الخضر ؛ لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء ، كما يقول رسول اللّه ﷺ .

والمراد بالفروة وجه الأرض اليابسة ، والبيضاء : الفارغة من النبات والغرس ، فإذا جلس على الأرض القاحلة الجرداء عمرت بالخضرة والحياة والنبات ، ومن ثم سمي الخَضِر - بفتح الخاء وكسر الضاد - ومعظم العلماء يقولون إن الخضر نبي غير مرسل ، وعند المحققين من الصوفية ولي غير نبي .

وأغلب المفسرين يذكرون أن الخضر موجود بيننا ، وهذا متفق عليه عند الصوفية ، وحكاياتهم أنهم رأوه في المواضع الشريفة أكثر من أن يحصى ، كما ذكر في الفتوحات المكية لابن عربي (*) .

وفي تفسير البغوى : أربعة أنبياء أحياء إلى يوم البعث .

اثنان في الأرض ، وهما الخضر وإلياس ، إلياس في البر ، والخضر في البحر .

(*) إذا علمنا أن القوم أصحاب عقيدة زائغة ضالة ، وأن لهم شطحات ونطحات ، وأكاذيب وافتراءات ، لم نقبل لهم خبرًا ولم نصدق لهم قولاً . **(مصحح دار الحرمين)**

واثنان في السماء: إدريس وعيسى عليهما السلام(*).

وفي كتاب التمهيد لأبي عمر إمام الحديث المشهود له بالدقة: أن رسول اللَّه ﷺ حين غسل وكفن، سمعوا قائلًا يقول: السلام عليكم يا أهل البيت: إن في اللَّه خلفا من كل هالك، وعوضًا عن كل تالف، وعزاء لكل مصيبة، فعليكم بالصبر فاصبروا واحتسبوا، ثم دعا لهم ولا يرون شخصه، فكان الأصحاب وأهل البيت يرون أنه الخضر(*).

وأكثر المحدثين على وفاة الخضر. سئل البخاري عن الخضر وإلياس هل هما من الأحياء؟ قال: كيف يكون ذلك وقد قال تعالى: ﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد**﴾ [الأنبياء: ٣٤]؟

والجواب على أن هذا الحكم جارٍ على الأكثر، ولا حكم للنادر(**).

هذا الخضر آتيناه الرحمة من لدنا، آتيناه طول العمر على قول من ذهب بعدم نبوته. أو آتيناه النبوة، فالرحمة جزء من النبوة.

وعلمناه علم الغيب بإذن اللَّه كما ذهب ابن عباس رضي اللَّه عنه.

والعلم الذي أراد أن يتعلمه موسى عليه السلام من الخضر هو العلم الباطني الذي يدرك بطريق اللمح والإشارة، وليس العلم الظاهري الذي يفهم بطريق الكلام والعبارة(***).

(*) وهذه أخبار لا يصح لها إسناد. **(مصحح دار الحرمين)**

(**) ولكن هذا إذا ثبت، أما إذا لم يثبت فلا تصح المجادلة والمنازعة فيه. **(مصحح دار الحرمين)**

(***) والراجح أن الخضر عليه السلام كان نبيًا وهذه الأمور علمها اللَّه تعالى إياه وأخبره بها، كما علَّم غيره من الأنبياء عن طريق الوحي، وذلك لقول الخضر لموسى (في الحديث المتفق عليه): «إنك على علم من علم اللَّه علمكه لا أعلمه، وأنا على علمٍ من علم اللَّه لا تعلمه ...» ولقوله تعالى: ﴿**وما فعلته عن أمري ...**﴾ [الكهف: ٨٢] فعن أمر مَنْ فعل الخضر إذن؟ فليس هناك حاجة إلى التفريق بين العلم الذي يعلمه موسى وبين العلم الذي يعلمه الخضر عليهما السلام. واللَّه أعلم. **(مصحح دار الحرمين)**

أرسل الله موسى إلى عبده الخضر ليتعلم منه، ولم يعلمه بواسطة جبريل أمين الوحي.

والعلم بطريق الإشارة هو الذي يفتقده موسى عليه السلام، أما طريق العبارة فهو على علم به ولا يفتقر إلى تعلمه، ولذا يقول له الخضر: ﴿**إنك لن تستطيع معي صبرًا * وكيف تصبر على ما لم تُحِط به خُبرًا**﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨]. من طريق التعلم بالإشارة لا بطريق العبارة.

وكان لموسى وجهة تختلف عن وجهة الخضر، فهما لا يتفقان، حيث إن الخضر يعلم علم الباطن، وموسى يعلم علم الظاهر، الخضر يعلم بطريق الإشارة، وموسى يعلم بطريق العبارة، ومن ثم فلن يستطيع مع الخضر صبرًا على ما يفعل؛ إذ لا يدرك مغزاه قبل أن يفسره له الخضر.

قال موسى للخضر متأدبًا فأورد ما يقول على طريقة الاستفهام: ﴿**هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدًا**﴾ [الكهف: ٦٦]، وأصحبك على شريطة أن تعلمني علمًا أسترشد به في ديني، وأصيب منه الخير في آخرتي؟

راعى موسى عليه السلام في خطابه للخضر التواضع الجم الذي ينبغي أن يتحلى به المرء أمام من يتلقى منه العلم، فهو لا يطلب مساواته للخضر في العلم، وإنما يريد نفحة من علمه، كالفقير الذي يسأل الغني بعضًا من ماله.

ولا ريب أن ما فعله موسى - وهو من خيرة الأنبياء - حين طلب الرحلة في سبيل العلم، يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يتخلف عن طلب العلم، وإن أدرك نهايته وبلغ منتهاه.

ولكن الخضر نفى استطاعة موسى على الصبر، نفاه على وجه التأكيد والتحقيق ﴿**إنك لن تستطيع معي صبرًا**﴾ [الكهف: ٦٧] ولا تستطيع أن تحيط بما أذكره لك وتراه مني علمًا وإدراكًا.

قال موسى ملبيًا طلب الخضر، إنه سيتذرع بالصبر، ولن يعترض على

شيء يفعله، ولن يخالفه في أمر يقوله.

وشرط الخضر على موسى إن صحبه لينال فضل العلم ألا يناقشه في شيء ولا يسأل عن حكمة ما يفعل حتى يبين له ما يريد بيانه من تلقاء نفسه.

وعلى هذه الشريطة صحب موسى الخضر، وانطلقا معًا يمخران عباب البحر، أما فتاه يوشع فقد صرفه موسى إلى بني إسرائيل.

ذهب موسى والخضر إلى الساحل يطلبان السفينة، وعندما دخلا فيها ثقبها الخضر، وشقها وهي بين الأمواج على غفلة من الراكبين، نزع لوحين من الجانب الذي على جهة الماء، فجعل موسى يسد الخرق بثيابه حتى يمنع دخول الماء، فتهوي إلى القاع ويغرق الركاب، واستنكر هذا الفعل على الخضر، خاصة أن أهل السفينة كانوا من الكرم بحيث سمحوا لهما أن يستقلا السفينة دون أجر، فلا يستحقون إذًا أن يكون جزاؤهم إغراق سفينتهم، لقد أتيت يا خضر أمرًا منكرًا عجيبًا لا يقره الطبع ولا ترضاه المروءة، ولكن الخضر في الحقيقة لم يثقب السفينة رغبة في إغراق الراكبين، وإنما خرقها لحكمة لم يدركها موسى عليه السلام.

قال الخضر لموسى: ﴿**ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا**﴾ [الكهف: ٧٥]. ولِمَ تتعجل الأمر، وتنكر ما أفعل؟ وما عليك إلا أن تتذرع بالصبر.

قال موسى: لا تؤاخذني بما نسيت، ويسر عليَّ متابعتك، فإني أحب صحبتك، وسأغض عن تساؤلاتي، وأترك مناقشتك، فأرجو أن تعفو عني باستفساري منك.

قبل الخضر عذر موسى عليه السلام، وتركا السفينة وانطلقا حتى إذا دخلا إحدى القرى، التقيا بغلام اسمه (جيسور) يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله في اللحظة.

عاد موسى مرة أخرى إلى الإنكار، فما حدث من الخضر لا يجد له

مبررًا ، إذ إنه قتل نفسًا بريئة لم ترتكب إثمًا ولا ذنبًا ، قتله ليس قصاصًا من شيء جناه ، إذ لم يقتل نفسًا حتى يقتص منه ، وإنما هو نفس طاهرة زكية لم تبلغ سن الرجال ، أليس ذلك أمرًا عجيبًا يدعو للإنكار والتعجب ، ولا يصح أن يرتكب ، وإذا ارتكب لا يقبل ، بل يدعو إلى الدهشة ، فهو أشد نكرًا من خرق السفينة ، إذ إن خرق السفينة يمكن تداركه بسده ، وهذا لا سبيل إلى تداركه ، وليس في طاقة أحد أن يعيد الحياة للغلام بعد إزهاق روحه ، أجل لقد جئت يا خضر شيئًا نُكرًا .

ضجر الخضر من موسى لمعاودته السؤال ، وترك ما أوصاه به ، أوصاه أن يتسم بالصبر ، ولكنه لم يتحمل ما رأى فتخلى عما وعد به الخضر ، فزاد الخضر في عتابه على موسى .

وعاد موسى إلى الاعتذار للمرة الثانية ، ولن يسأل عن شيء بعد ذلك ، وأكد للخضر إذا سأله عن شيء فلا تصاحبني ، وأبعدني عنك حتى إن سألتك الصحبة ، وإن رابنى منك شيء مرة أخرى فلا تقبل مني عذرًا ، ولا ترافقني في مسيرتك ، فقد استنفدت جميع الأعذار .

وغذَّ موسى مع رفيقه الخضر في السير ، فأتيا أهل قرية تسمى (إنطاكِيَة) ، لها سور عظيم منحوت من صخر ، وطلبا من أهل القرية استضافتهما ، ولكنهم امتنعوا عن ذلك ، فهم أهل شح يغلقون أبوابهم في وجوه الغرباء ، ولا يرحبون بهم .

وجدا في القرية جدارًا يكاد أن يتهدم ويسقط ، فسواه الخضر بيديه ، ولكن موسى كان يشعر بالجوع ، وأنهما في حاجة إلى ثمن الطعام حتى يمكنهما الحصول عليه ، فسأله موسى أن يطلب أجرًا على تسويته الجدار وإقامته بعد أن كاد يتهاوى ، ومن هذا الأجر نستطيع أن نحصل على طعام مادام أهل القرية بهذا الشح وأبوا ضيافتنا .

ومن لطيف المحاورات، ما قيل في هذا المقام:

سأل موسى الخضر: خرقت السفينة لتغرق أهلها؟

قال الخضر: ألم تكن في البحر، ولم تغرق من غير سفينة.

سأل موسى: أقتلت نفسًا زكية بغير نفس؟

أجاب الخضر: ألم تقتل القبطي بغير ذنب.

قال موسى: لو شئت لاتخذت أجرًا على إقامة الجدار؟

أجاب الخضر: أنسيت سقياك لبنات شعيب من غير أجرة.

هذا وقت الفراق بيني وبينك يا موسى، فلن تستطيع أن تكف عن السؤال، ولن تستطيع أن تمتنع عن الاستفسار، فقد سألت واستفسرت المرة تلو المرة رغم أنك آليت على نفسك ألا تسأل وألا تستفسر وألا تجادل، وإني سأنبئك بما لم تستطع عليه صبرًا.

أراد الخضر أن يوضح لموسى الأسباب التي دعته إلى هذه الأفعال التي استنكرها عليه موسى عليه السلام، وهي وإن كانت في ظاهرها أفعالًا آثمة ظالمة، غير أنه لم يقدم إليها إلا لحكمة قد تخفى على الرائي أو السامع.

يقول الخضر: أما السفينة التي قمت بثقبها كانت مِلكًا لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلم؛ إذ كانوا عشرة أشقاء، نصفهم مرضى مصاب ببعض الآفات، ويعملون في البحر للكسب والمعيشة، فأردت بحكمة اللّٰه وإرادته أن أصمها بالعيب حتى يتركها الملك الذي يستولي على كل سفينة صحيحة خالية من العيوب، يسطو عليها قدرًا واغتصابًا، وملاكها لا يستطيعون له مخالفة، فقصدت إلحاق العيب بها، ولم أرد إغراقها.

كان هذا الملك كافرًا لا يؤمن بدين ولا يعترف بعدل، يسمى جلندي بن كركرد حاكم قرطبة بالأندلس، ويذكر أن أول فساد في البحر كان على يد هذا الملك.

وأما الغلام الذي قتله الخضر واسمه جيسور، كان أبواه مؤمنين يقران بالتوحيد، واسم أبيه كازبرا، واسم أمه سهوى، هذا الغلام طبع على الكفر، وأعلم اللَّه الخضر بحال الغلام، فخشي منه على الأبوين المؤمنين أن يهوي بهما إلى الكفر، وينزلقا معه إلى الضلال، فقتلته، ورجوت من اللَّه أن يرزق الأبوين ولدًا آخر ليس على شاكلة الغلام، طاهرًا من الذنوب، والخلق السيئ، وأن يكون بارًّا بوالديه مطيعًا لهما؛ إذ لو عاش الغلام الذي قتلته لأفسد دين أبويه وسبب لهما الشقاء بمباشرته أعمال الكفر والعصيان.

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في إنطاكية، واسمهما: أصرم وصريم، وكان تحت الجدار كنز مدفون لهما من ذهب وفضة. وكان والد الغلامين رجلًا صالحًا يضع الناس أموالهم ودائع عنده يحفظها لهم، ويردها إليهم كاملة عند طلبها، وكان بسبب صلاح هذا الوالد أن حفظ اللَّه ما تركه أبوهما من مال، حتى إذا كبرا ونضجا استخرجا كنزهما من تحت الجدار، ولولا أن الخضر أقامه لانقض الجدار وتهاوى، وظهر الكنز من تحته قبل أن يقدرا على الحفاظ عليه نظرًا لصغر سنهما وضعفهما، وضاع منهما كلية. فكان ذلك رحمة من اللَّه بهما.

وكل ما فعلته من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار لم أفعله عن رأيي أو اجتهاد مني، وإنما فعلته بأمر من اللَّه ووحيه.

وضح الأمر لموسى، وظهر منه ما كان خفيًّا، فاستبان له العذر في أفعال الخضر التي كانت جانحة غير مقبولة.

وهذا ما لم تدركه يا موسى من أول الأمر، ولذلك قلتُ إنك لن تستطيع معي صبرًا، إذ ترى أشياء لا تدركها، وتستنكر فعلها، فإذا أدركت الغرض منها تيقنت أن ذلك بوحي من اللَّه، وطاعة لأوامره التي لا تصدر إلا عن حكمة (*).

* * *

(*) وهنا دلالة نبوة الخضر عليه السلام. (**مصحح دار الحرمين**).

□ الأرض المقدسة □

طلب موسى من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة، والمراد بها - على الأصح - بيت المقدس، التي طهرها اللّه من الشرك، وجعلها مقرًّا للأنبياء، وأن يسكنوا فيها بشرط الإيمان وإطعام الفقراء، ولا تولوا مدبرين على أعقابكم فتفعلوا خلاف ما أمركم اللّه به، فيفوت ثوابكم وتظلموا أنفسكم.

قالوا: إن في بيت المقدس قومًا جبارين لا تتأتى مقاومتهم؛ على أن النقباء الاثني عشر خرجوا يتحسسون الأخبار، ويقفون على قدرة العدو، فهالهم ما رأوا من قوة شكيمتهم وطول قدودهم وعظم أجسادهم، وشاع خبرهم عند بني إسرائيل فداخلهم الجزع من بطشهم إذا قصدوا دخول ديارهم.

قالوا لموسى: لن ندخلها فإن فيها قومًا جبارين لا طاقة لنا بهم، ولا قدرة لنا على مواجهتهم، ولن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن خرجوا منها فإنا داخلون فيها.

قال رجلان من الذين لا يهابون العدو، ويخشون اللّه، هما كالب ويوشع، أنعم اللّه عليهما بثبات النفس والثقة بوعد اللّه: ادخلوا عليهم الباب واقتحموا مساكنهم وباغتوهم، وامنعوهم من الخروج إلى الصحراء، لئلا يجدوا للحرب مجالًا، واهجموا عليهم في المضايق، فهم لا يقدرون على الكر والفر، إن فعلتم ذلك فأنتم الغالبون من غير حاجة إلى قتال، وتوكلوا على اللّه فهو ناصركم ومؤازركم.

لم يصغ القوم لقول الرجلين، فما زالوا مصرين على عدم دخول بيت المقدس ما دام الجبارون مستقرين في هذه الأرض، وإذا كنت تريد قتالهم ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون**﴾ [المائدة: ٢٤] قالوا ذلك

مستنكرين لقول موسى مستهزئين به .

رأى موسى شدة عناد قومه ، فبث لربه شكواه وهو في حزن شديد وكرب عظيم : رب إني لا أملك إلا طاعة نفسي وطاعة أخي هارون ، فقومي لا يطيعون أمري ولا يستمعون لكلامي ، فافصل بيننا وبين قومنا المعاندين الفاسقين ، وعامل كلًّا منا بما يستحق من ثواب وعقاب .

وكانت الأرض المقدسة محرمة عليهم ، لا يدخلونها ولا يملكون من أمرها شيئًا أربعين سنة كاملة ، أراد اللَّه بمنعهم دخولها أن يخفف عن موسى ما أصابه بسبب عنادهم وعصيانهم من حزن عميق ، فهم أهل عناد وخيانة ، ولذا فهم أحقاء أن يتيهوا في الصحراء هذه الأربعين سنة .

وهكذا كان دأب بني إسرائيل في العناد والعصيان ، ونسيانهم ما أنعم اللَّه عليهم من نعم عديدة ، لم يشكروها ولم يعرفوا قدرها ، وتمادوا في العدوان والمعاصي ، وتكررت جناياتهم واحدة بعد الأخرى .

حرم اللَّه صيد الحيتان يوم السبت ، وجعله مخصصًا للعبادة عندهم ، فلم يمتثلوا لما أمر اللَّه ، ونقضوا العهد والميثاق فأنزل اللَّه عليهم عقوبة المسخ إلى قردة وخنازير .

ونجاهم من بطش فرعون وكيده ، وفجر لهم الأرض عيونًا ، وجعل الغمام ظلًّا لهم يتقون به لفح الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ليأكوا ويتمتعوا ، غير أنهم لم يشكروا نعمة اللَّه وجحدوها ، وطلب إليهم أن يدخلوا الأرض المقدسة فتعللوا بأن فيها قومًا جبارين لا يستطيعون مقاومتهم .

وأنزل على موسى التوراة فلما بلَّغهم بها أبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها من تكاليف شاقة ، كتعين القصاص في القتل الخطأ دون شرع الدية ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب وعدم الاكتفاء بغسله ، وإحراق الغنائم ، وتحريم الصيد يوم السبت ، كل ذلك لم يعملوا به .

إلا بعد أن حذرهم اللّه بإلقاء الجبل عليهم وهلاكهم، فلما رأوا ألا مهرب لهم قبلوا وسجدوا، وكانوا يلاحظون الجبل وهم سجود خوفًا من أن يقع فوقهم، ثم أعرضوا عن الميثاق ولم يلتزموا الوفاء به، ولولا فضل اللّه ورحمته لهلكوا بإسقاط الجبل عليهم.

وغير ذلك كثير من النعم التي أنعم اللّه بها على بني إسرائيل، ولكنهم لم يعتبروا بها ولم يوفوا حق شكرها؛ بل جحدوها ظلمًا وتناسوها بغيًا وإهمالًا.

هكذا كانت طبيعة تصرفات بني إسرائيل مع نبيهم موسى وأخيه هارون، سلسلة من المعاصي والغدر، والجحود والنكران إلى أن توفاهما اللّه.

والذي عليه الجمهور أن هارون توفي بالتيه قبل أخيه موسى بسنتين، ومات بعده موسى في التيه أيضًا، ولكنه سأل ربه أن يقربه إلى بيت المقدس رمية حجر، فأجيب إلى ذلك.

«فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو: يوشع بن نونَ فتى موسى الذي صحبه إلى الخضر - وذكر أصحاب التاريخ أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سورًا، وأعلاها قصرًا، وأكثرها أهلًا، فحاصرها ستة أشهر حتى تفسخ سورها وسقط، واستولوا على كثير من الغنائم، وقتلوا اثني عشر ألفًا من الرجال والنساء. وفتح أريحا كان سببًا في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم»[١].

ولما حانت وفاة موسى عليه السلام أتاه ملك الموت في صورة غير صورته الحقيقية فلطمه موسى ففقأ عينه، فأتى ربه، وقال: يا رب عبدك موسى فقأ عيني، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه، قال له: اذهب إلى عبدي وقل له فليضع يده على متن ثور، وله بكل شعرة وارت يده سنة، فقال للملك الموت:

---

(١) قصص الأنبياء (ص٣٨٧) ابن كثير ط عيسى الحلبي.

ما بعد هذا؟، قال: الموت (*).

مر موسى بملإٍ من الملائكة يحفرون قبرًا، فلم ير أحسن منه ولا أبهج، فقال: يا ملائكة اللّٰه لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد كريم من عباد اللّٰه، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر، وتمدد فيه وتوجه إلى ربك، وتنفس أسهل تنفس، ففعل ذلك، فمات موسى عليه السلام، فصلت عليه الملائكة ودفنوه، ولا يعلم أحد أين دفن وأين قبره إلا اللّٰه سبحانه وتعالى.

* * *

(*) في الصحيح: قال – أي موسى –: فالآن إذًا. أي الموت وهو يدل على بطلان الخبر الذي بعده. **(مصحح دار الحرمين)**



□ فهرس الموضوعات □

* * *

□ كتب للمؤلف □

الكتاب	الطبعة	الناشر
١- أثر النحاة في البحث البلاغي	الطبعة الثانية	ط قطر
٢- فن البلاغة	الطبعة العاشرة	ط بيروت
٣- القرآن والصورة البيانية	الطبعة الثانية عشرة	ط بيروت
٤- فن البديع	الطبعة الرابعة	ط المنار
٥- من بلاغة النبوة	الطبعة الثالثة	ط مؤسسة الخليج
٦- الاكسير في علم التفسير تحقيق	الطبعة الثانية	ط بيروت
٧- أصول البلاغة تحقيق	الطبعة الثانية	ط قطر
٨- مقدمة شرح نهج البلاغة	الطبعة الأولى	ط الشروق
٩- المختصر في تاريخ البلاغة	الطبعة الثانية	ط الشروق
١٠- الرسول واعظًا بليغًا	الطبعة الأولى	ط أوزوريس
١١- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة تحقيق	الطبعة الأولى	ط نهضة مصر
١٢- من علوم القرآن وتحليل نصوصه	الطبعة الأولى	ط قطر
١٣- نصوص من القرآن الكريم	الطبعة الأولى	ط قطر
١٤- مختارات من الشعر العباسي	الطبعة الثانية	ط الأمانة
١٥- خلاصة المعاني تحقيق	الطبعة الأولى	ط السعودية
١٦- قصار السور : نظرات وتأملات	الطبعة الأولى	ط مؤسسة الخليج
١٧- دعاء الأنبياء والصالحين	الطبعة الأولى	ط مؤسسة الخليج
١٨- دراما الحسد والغريزة : قصة يوسف عليه السلام	الطبعة الأولى	ط مؤسسة الخليج

١٩- البلاغة العالية « علم المعاني »		
مقدمة	الطبعة الأولى	ط الآداب
٢٠- البلاغة العالية « علم البيان »		
مقدمة	الطبعة الأولى	ط القاهرة
٢١- الإيضاح للخطيب القزويني		
تحقيق	الطبعة الأولى	ط الآداب
٢٢- تفسير جزء الذاريات	الطبعة الأولى	ط المنار
٢٣- تيسير نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز	الطبعة الأولى	ط بيروت

* * *

رقم الإيــداع: ٥٥٨٧/ ١٩٩٦

الترقيم الدولي: 977-5070-14-7

دار الحرمين للطباعة بالقاهرة هاتف وفاكس: ٤٨٢٠٣٩٢

٧٢ ش مصر والسودان - حدائق القبة هاتف وفاكس: ٢٩٧٩٧٣٥

هذا الكتاب

قصة موسى عليه السلام منذ مولده إلى أن توفاه الله مليئة بالأحداث الجسام، فأمه تخشى عليه منذ طفولته من بطش فرعون فتلقيه في اليم. كانت واثقة أن الله سيتولى أمره، ويرده إليها سالمًا.

وعندما يشب عن الطوق يقتل واحدًا من شيعة فرعون. لم يرد قتله، وإنما أراد زجره. فبطش به وقتله دون قصد. هرب من مصر إلى الشام وحيدًا يجوب الصحراء يبطش به الجوع ويمزقه العطش.

التقى في مدين بالنبي شعيب وتزوج ابنته صافوريا ومكث في رحابه عشر سنين يقوم بخدمته ويرعى مصالحه.

دفعه الشوق لرؤية أمه وأخيه هارون بمصر فغادر مدين متجهًا إلى مصر، وفي الطريق ناداه ربه عند الوادي المقدس وأيده بالعصا، واليد البيضاء، والرسالة إلى فرعون وقومه. وظن فرعون أن موسى ساحر، فأراد أن يلقنه درسًا وجمع سحرته ليكون عبرة لمن يعتبر، تغلب موسى على سحرة فرعون، ولكن فرعون أبى الهزيمة فتعقب موسى مطاردًا إياه، فأغرقه الله في البحر وجعل جثته طافية تشاهدها العيون فلا ينكر إغراقه أحد، فإلهم قد مات وأصبح طعمة للأسماك.

انطلق موسى إلى جبل الطور ليعبد ربه وترك قومه في معيّة أخيه هارون ولكن السامري أضلهم حين صاغ من حليهم عجلًا يعبدونه من دون الله.

وعندما طلب موسى من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة، داخلهم الخوف لأن فيها قومًا جبارين لا قِبل لهم بمقاومتهم، ونكصوا على أعقابهم، فعاقبهم الله بأن يتيهوا في الصحراء أربعين سنة بسبب عنادهم وعصيانهم.

مات موسى عليه السلام وصلت عليه ملائكة الرحمن، ودفنوه في قبر لا يعلم أحد مكانه إلا الله سبحانه. مات صاحب النفس القلقة والهمة العالية، وقلبه مطمئن بالإيمان.

مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.

١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة
ت ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٦
فاكس ٣٤٥٤٦٤٤